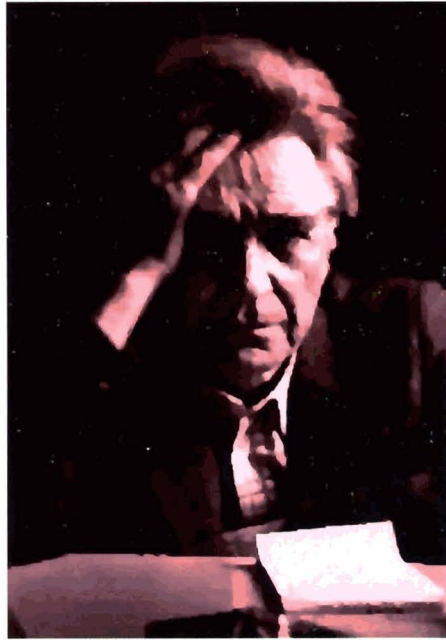




المعنى والغضب

مدخل إلى

فلسفة سيوران



حميد زناز

المعنى والغضب

مدخل إلى
فلسفة سيوران

المعنى والغضب

مدخل إلى

فلسفة سيوران

حميد زناز



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilaf

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 0-559-87-9953-978

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف
Editions Elkhitef

149 شارع حسبية بن بو علي

الجزائر العاصمة - الجزائر

e-mail: revucikhtilef@hotmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. 

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

للتصديق وفرز الألوان: أبجد جرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

- 7.....الإهداء
- 9.....عندما علمت بمولدي فقدت كل شيء!
- 15.....رقعوا ما لا يرقع!
- 27.....ذلك الرجل المنفي في وعيه!
- 39.....هل تتوافق الكتابة الأنيقة مع الفكر المتشائم؟
- 47.....أنا فيلسوف عوّاء!
- 51.....اضحكوا ولكن ابكوا في نفس الوقت... أيضا
- 71.....زنزانة الوجود

الإهداء

إلى كاميليا، رفيق، سارة، كريمة

عندما علمت بهولادي فقدت كل شيء!

"إن جميع ما يفعله البشر ليس إلا علاجاً
لغلطة وجودهم"

عبدالله القصيمي، أيها العقل من رآك؟

"ما كان أسعدي لو لم أجيء للدهر يوماً ولم أرحل ولم أكن".
يضعنا بيت عمر الخيام رأساً ضمن الجو العام الذي تدور فيه الفكرة
المركزية المتمحورة حولها تأملات الفيلسوف الروماني الأصل والفرنسي
الإقامة، إميل سيوران⁽¹⁾. ليس مأساة الإنسان في موته وإنما في ولادته،
ذلك هو بيت القصيد. فإن كان راوول فانيغيم يعتقد أننا ولدنا لئلا
نشخ أبداً ولئلا نموت أبداً أيضاً، يبدو سيوران متأكداً بأننا وجدنا لئلا
نولد أصلاً!

يكمن إشكال الوضع البشري حسب مؤلف "مساويء أن يكون
الإنسان قد ولد"، في استحالة العودة إلى الطمأنينة الأولى والغطس ثم
الذوبان من جديد في نعيم ذلك اللاوجود العذب الذي كنا نتمتع فيه
قبل أن نولد، قبل أن نتفردن. لقد رُمي الإنسان في جسد وُثرك يتيماً

(1) ولد إميل ميشال سيوران في 18 أبريل سنة 1911 في رازيناري إحدى
القرى النائية بمنطقة ترانسلفانيا التي كانت آنذاك تحت الحكم الهنغاري -
النمساوي وتوفي يوم 12 جوان 1995 ببباريس، منفاة الإختياري.

أمام مصير مجهول، فما كان يمكن أن يكون إلاغريبا في هذا العالم الموحش. ينبع ضجر الإنسان وتذمره حيال الوجود من هذا الإحساس المطلق بالتيه، ومن ذات الإحساس نشأت الآلهة والديانات والفلسفات. ما الواقع سوى قمامة لدى سيوران، نسخة باهتة لممكن ما، أغنى وأسعد. لذلك نعثر على حنين يسري في كل ما كتب. حنين إلى مطلق مستحيل المنال، حنين إلى ما قبل النشأة: "حينما عرفت بأبني ولدت، انتهى كل شيء بالنسبة لي"، يتحسر بمرارة. وهذه "المعرفة" هي مصدر تمرده وشكواه الدائمين. الموت الحقيقي للإنسان هو ولادته. أليست الولادة سقوطا للروح في قبر الجسد؟

هذا الإحساس العميق الدائم بالسقوط في فخ التشخيص هو منبع كل العسر الميتافيزيقي الذي يعصف بالذات المفكرة. يجتئل لقاريء أدب سيوران أنه عاش منفيا في الوجود، تحاصره أفكار اللاخلاص من كل جانب، فيبدو من خلال كل ما دوّن كأنه كان مكبلا بما يشبه اللاقرار. فلا آمن بالبعث المسيحي ولا رغب في أن يفنى مع البوذية. لا أمل في بعث مع سيدنا عيسى ولا امحاء مع السيد اللطيف بوذا ولا تضحية بالعقل ولا خطوة ما نحو رهان الفيلسوف باسكال. على رغم استسلامه للأمر الواقع وزهده الظاهرين، فليس من السهل أن نراه يجذو حذو رسول التشاؤم والتطير شوبنهاور الذي كان يرى في وجودنا "صراعا مستمرا مع الحياة مع يقيننا التام بأننا نمى بالهزيمة النكراء في نهاية المطاف"⁽¹⁾.

مقيّد بفكر عدم الخلاص، عاش إميل الآتي من بلاد دراكولا كل حياته في منفى جغرافي وفلسفي وفي رفض مستमित للمعطي،

R. Jaccard, La tentation nihiliste, P. U. F., 1989, p. 53 (1)

للمحدود وللجزئي.. وهو ما جعله دائم الندم على أمر لم يرتكبه، هو ورطة السقوط في وجوده: "لست من هذا العالم، كتب ذات يوم، أنا في وضع الغريب الدائم، في حالة لا انتماء كلي حيال أي شيء. ضياع الفردوس يستبد بي أيما استبداد."⁽¹⁾ إن الإنسان لفي وضع الغريب، في حالة نوستالجيا مزمنة إلى مطلق منيع، توق محموم إلى فردوس ضائع إلى الأبد، مرحبا أيتها الغربة! غربة ورفض للمحدود فتمزقات.. دفعته دفعا للبحث المتجدد دوما عن زمن آخر بغية الخروج والإنفلات من قيد الصيرورة الأرضية وسجن الزمن الحاضر الذي يخنقه. الصيرورة احتضار بلا خاتمة، كتب ذات مرة.

إن الشعور بالمنفى ووعي التغرّب في الزمن الأرضي هو الذي يؤلّد ذلك الحنين إلى ماضٍ أسطوري. ما البحث عن هناك آخر سوى عسر تلاؤم مع اللحظة - هنا. وما ذلك العسر إلا الحنين ذاته. لم يكفّ سيوران عن الإشارة إلى تلك السكينة الأبديّة - في العدم - لأنه يعتقد أن في عمق الإنسان توقّ حميم للعودة إلى وضع ما قبل حالة الوعي وهو ما يفسر في نظري حسرته المستديمة على فقدان البراءة والمعنى والحرية. ندم لا نهائي على ذلك الزمن الذي ترك السقوط منه فجوة سحيقة بين الأنا والعالم. ما أسعده زمنا لم يكن فيه الكائن البشري قد انحدر بعد إلى وعي ممزق...

هو فيلسوف المستحيل بامتياز. يعتبر من أكثر الفلاسفة تجذرا في الكتابة المساوية. بقي طيلة حياته وفي كل ما كتب وقال مسمرا في عدم تلاؤم حاد مع المعطى، مع منطق الأشياء، بل في حالة عدم اكتفاء تام بالقائم. كان على طول الصفحات التي سوّد معلقا بين طرفين متقابلين: إما كل شيء أو لا شيء على الإطلاق! جنة أو جهنم؟

Cioran, Cahiers 1957 - 1972, Gallimard, 1997, p. 19 (1)

هل يعود موقفه الفلسفي إلى شعور مبكر بالضجر غدّي تيرمه من الحياة إلى غير رجعة أم أن نظرته إلى العالم تعود إلى تلك الهوية الغنية تاريخيا والممزقة ثقافيا أم أن الأمرين معا جعلاه منه مفكرا فريدا تعاطى مع الفلسفة بطريقة جديدة وشخصية للغاية، كثيرا ما تفتك ابتسامة من أشد الوجوه اكفهرارا؟

أمام فكر عصبي على التلخيص أو النمذجة والتبسيط، أكتفي بالإنصات إلى هذه الروح الفلسفية المحكوم عليها بمقارعة المستحيل. لا أحاور سيوران كله وإنما سيوران الذي وصل إلى عنق الزجاجة، تلك الطبيعة التي ولدت والتي ما زالت تحلم بعدم الولادة. فلا أبتغي من خلال صفحات هذا الكتيب تقديم نظرة أكاديمية عن فلسفة الرجل بقدر ما أحاول جهد المستطاع تتبع الغليان الذي يعتريه، ذلك الصراع الداخلي، تلك الحرب الأهلية المشتعلة في دواخله، ذاك الحوار اللانهائي مع الذات. إنها محاولة رصد لتلك الرحلة المضطربة نحو الذات والعالم بغية الإستمتاع بمحاورة متقطعة ومستمرة في آن بين الأجزاء المتشظية لشخصية من أقلق الشخصيات التي عرفها القرن الـ 20 وأندرها.

سأحاول التساؤل عن سر ذلك الإحساس العدمي الراقد في أعماق الفيلسوف والوقوف على أسباب طلاقه وعدم تصالحه المستمر مع الواقع المائل أمامه وما إذا كان ألمه الميتافيزيقي عائدا أصلا إلى عدم ذاك التصالح؟ لماذا ظل بحثه لا نهائيا عن مطلق ما، يعترف هو نفسه أنه لا يفقه من كنهه شيئا؟ في كتاباته يغدو الإنغماس في الذات صرخات مدوية لا مصطلحا فلسفيا باردا. يصف نفسه بالفيلسوف العوّاء. "أفكاري، إن كان لي ما يمكن تسميته أفكارا، فهي تنبج، إنها لا

تفسر شيئاً بل تنفجر"⁽¹⁾. أفكاره وساوس، يقول، يجب أن يحافظ الفكر على مذاق من اللحم والدم.

من يقرأ سيوران سيكون مدعواً حتماً ليعيش تأملاً طويلاً وبهجاً حول مساوية ولادة الإنسان. سيعايش مقاضاة صارمة للوضع البشري عموماً ولمسيرة ابن آدم نحو هلاكه على وجه الخصوص. "كل ما فكرت فيه يعود في الأصل إلى توعكات شخصية حولتها إلى أحكام عامة". بقى الإستغراب حيال الوجود لب تجربته الحياتية الفلسفية. أليس كل تجربة ميتافيزيقية استفهاماً لا يهدأ ولا يبرأ حول أصل الكائن ومصيره؟

رتقوها لها لا يرقع !

"إذا أمكن للإيمان أو السياسة أو الحيوانية
النيل من اليأس، لاشيء ينال من الكآبة: لا
يمكن أن تتوقف إلا مع آخر قطرة من دمنا"

سيوران

مع صاحب كتاب "موجز العَقْن"⁽¹⁾، نبتعد عن ذلك التفاؤل السعيد الذي كثيرا ما بشرت به المذاهب العقلانية ثم حاولت العلوم الوضعية بمعية بعض الإيديولوجيات أن تجسده سعادة دنيوية. ككل فلاسفة العبث الذين هم أكثر قربا إلى القلب منهم إلى العقل، بقي مقتنعا أشد الإقتناع بعدم قدرة العقل على إضفاء معنى ما على الحياة. لكن قاسم هؤلاء الوجوديين نظرهم القلقة أزاء الوجود فإنه لم يجاريهم بل انفصل عنهم انفصالا جذريا في ما يتعلق بمصدر ذلك القلق. فليس يقين الموت هو الذي يُنقّص عيش الإنسان ويجعل الحياة لا تطاق حسب مؤلف "على ذرى اليأس"، وإنما تكمن معضلة البشر الأساسية في كونهم يولدون. أن "لا نولد" هي أمثل صيغة وجود على الإطلاق، يقول، ولكنه يتحسر رادفا أنها ليست، مع الأسف الشديد، في متناول أحد. خطيبتنا الأصلية هي أننا لم نفعل كل ما

Précis de décomposition (1)

كان يجب أن نفعله من أجل ألا نأتي إلى هذا العالم، يقول في دعاية من دعاياته الجميلة. أن يولد المرء، هذا أمر لا يلبي أية حاجة على الإطلاق فلا ضرورة له البتة. إن الفيلسوف لعلّ يقين أنه ولد هكذا صدفة في عالم لا يوليه أدنى اكتراث. يتمحور عمل سيوران الأدبي - الفلسفي حول هذا الإحساس بعدم جدوى الولادة، ومنه تتوالد وتتناسل جل أفكاره. ابتداءً من ذلك الشعور الحاد بخسارة اللاوجود وهي خسارة فادحة غير قابلة للتعويض بل رسوب نهائي في امتحان الكينونة، لا يمكن استدراكه، ومرورا بمعاماة الضجر ووعي العدم ووصولاً إلى وسواس الإنتحار والذهاب إلى محاولة إعادة مصداقية فلسفية مفقودة للإنتحار، ذلك الحق الذي تقترفه النفس المملولة في حق ذاتها والذي شوهته الديانات التوحيدية حسيبه.. تعاود هذه الأمور الظهور كهواجس رئيسية ثابتة من كتاب إلى آخر لتذكّر بني آدم وحواء أنهم في قاع جهنم وبأن حياتهم رديئة وأن مستقبلهم سيكون أردأ. فـ "لا شيء يثبت أننا أكثر من لا شيء".

يعتبر سيوران قدرة الناس على الإستمرار في زيف الحياة بطولية عظمى. أن تستمر في العيش هو فعل احتجاج ضد الحقيقة، يقول. بكلمة واحدة: إن الحياة غير قابلة للتحمل. فلا جدوى إذن من انتظار غودو، فسيوران يعلم مسبقاً ما سوف يخبرنا به سامويل بيكت، فيعلن ببرودة لامتناهية: "رؤيتي للمستقبل واضحة جداً أنه لو كان لي أبناء لخنقتهم على الفور"⁽¹⁾. لا الخلوة الدينية ولا الإنغماس في الملذات العابرة ولا التحركات الطموحة والإنتهازية.. كفضيلة بأن تضمن لنا أدنى سعادة ممكنة. ففي الوجود كارثيين يقول الكاتب الساخر برنارد شو: الأولى عندما لا تتمكن من تحقيق رغباتنا والثانية عندما نحققها كلها. الحياة تراكم من التفاهات،

(1) l'inconvénient d'être né(I. E. N), Œuvres, Gallimard 1995, p. 1351

أشياء بسيطة رديئة مضحكة في نظر الكاتب الجزائري رشيد بوجدره⁽¹⁾. هذه الدنيا عاصفة من الخراء، تقول إحدى شخصيات كاتب البيرو الكبير فارغاس لوزا، لا ملاذ لنا فيها سوى تحت ظلال الفنون. فلنحتم يا إخوتي، تحت جناح بيكاسو ويوسف شاهين وأم كلثوم... لا خلاص إلا في تأمل التحف واستنشاق الجمال. ألم يقل أحدهم أن الفن هو الشيء الوحيد الذي يجعل الحياة أكثر أهمية من الحياة ذاتها؟ فالحياة قصيرة والفن طويل، قال لنا سقراط منذ زمان.

الولادة انحدار إلى ما تحت الزمن، هي ثقل حمله سيوران كألم فلسفي مركزي طوال حياته، ألم مكتوب حدد نظرتة إلى الدنيا وما فيها. ولكن ألا يحسن بنا أن نتساءل عن الأسباب التي أدت بصاحبنا إلى أن يكون مفكرا مقلوبا؟ لماذا وعلى نقيض الفلاسفة والمفكرين الآخرين الذين ينحون دائما نحو المستقبل، يعود صاحب "التاريخ والبيوتوبيا" إلى بداية المستقبل ذاته ويتخذ من ولادة الإنسان وتيهه على وجه البسيطة موضوعا لتأملاته؟ أليس من العبث أن يعود فيلسوف إلى أمر واقع لا يمكن أن نفعل حياله شيئا؟ ألا يكون الندم على الولادة من أغرب وأطرف بل ومن أعقم أشكال الندم في نهاية الأمر؟ ولكن ألا ينبغي أن نحاط من هؤلاء المفكرين الذين يغرقون في الجدية، كما يقول لنا الفيلسوف السلوفيبي سولوفوى زيزيك، أولئك الذين لا نكاد نثرع على أدنى غرابة أو طرفة في أعمالهم الأدبية؟ إن سيوران لا يخفي نفسه، فأحد عناوين كتبه السابقة الذكر يؤكد أن الولادة معضلة. "مساوية الولادة". هو مقتنع تمام الإقناع أن آلام البشر آتية بل تبدأ مع ولادتهم. نقرأ في "أحلام" الفيلسوف أدورنو التي بدأ يسجلها ابتداءً من 1934 وإلى غاية 1969، صرخته في وجه أمه قائلا: "لعن الله الجسم الذي وهبني

(1) الجزائر نيوز 2007/04/08.

الحياة"⁽¹⁾. أتمنى أن تلغى المآثم. أريد أن نندب حظ البشر عند ولادتهم، لا في مماتهم، يقول مونتسكيو. وحتما يبارك سيوران تلك الصرخة وذاك الإقتراح. كينونة، قرف، سقوط، غم، كرب، قلق، كابوس، ذات، سهاد، انخطاط، تاريخ، عبث.. تلك هي باختصار مكونات العمود الفقري لتأملات العبد الضعيف سيوران. تتوالد تلك المشاغل الفلسفية الكبرى وتتكاثر انطلاقا من فكرته - الوسواس (الولادة) لتغدو مع مرور الزمن نوات شخصية جدا نعثر عليها مبعثرة في كتبه التي تدور عادة حول الموت والحكمة واللغة والأدب وغيرها من القضايا الفكرية الكبرى.

تجدر الإشارة إلى أمر فريد قلما عثرنا عليه لدى غيره من الفلاسفة ألا وهو ذلك الارتباط الوثيق والحميم بين فلسفة الرجل ومزاجه، فلا انفصال بين الإنسان والمفكر. تماهى مع كتاباته إلى حد أصبح فيه من الصعب الإمساك بالخيوط الذي يربط بين مواقفه التي تبدو متنافرة أحيانا إذا لم تُربط بحياته الخاصة، بسيرته الذاتية. في حالة سيوران يشكل العمل الفكري والمفكر جسما واحدا. لم يكف عن اجترار نفس القضايا منذ كتابات الشباب بلغة أمه الرومانية ومرورا برسائله الغزيرة وحتى الوصول إلى نصوصه اللاحقة المكتوبة باللغة الفرنسية ومقابلاته الصحفية الكثيرة، ولكنه كان في كل مرة يخرج ما يكتب في نكهة متجددة دائما وفي قالب مغاير يتلاءم مع ابسيكولوجية اللحظة المعاشة وما تمليه عليه. وإن كان ليس صاحب فكرة واحدة، فإنني لا أتردد في القول مع رفيقة عمره سيمون بويه أنه لم يكتب سوى تنويعات حول نفس المسألة⁽²⁾. "لقد ولدتم جزافا"، تلك هي رسالته الأولى والأخيرة لبني نوعه.

Adorno. T. Mes rêves, éd. Stock 2007 (1)

Collectif, Lectures de Cioran, Harmattan, 1997, p. 20 (2)

مثل جميع المفكرين الكبار، تمحور فكره حول حدس واحد، فكرة مركزية واحدة، كررها، طورها أعاد صياغتها.. ماذا تقول للذي يكتشف أعمالك لأول مرة؟ هل تنصحه أن يبدأ بقراءة كتاب معين من كتبك؟ تسأله سيلفي جودو في كتاب خصصته للتعريف بفلسفته⁽¹⁾. يختار ما يشاء، يجيب، ليبدأ من حيث شاء، فليس هناك تقدم في كتاباتي إذ يحتوي أول كتبي ضمينا على كل ما قلته لاحقا. كالموسيقى تتغير وتيرة تأملاته ولكنها لا تتقدم. تلبس لباسا مخالفا فقط. يبقى الهاجس هو هو، فكأنه مخدر بالتحسر على سقوطه في جسده. كل شيء يدور حول هذه الهزيمة، ينطلق منها وإليها يعود. لقد قال في الولادة ما قاله مالك في الخمر. هجاها بما لم يُقرأ قبله قط.

كان استهجان الولادة حاضرا ضمينا في كل ما كتب في بداية مشواره الأدبي، لكن سرعان ما يظهر بكل وضوح وقوة في أول كتبه المدونة باللغة الفرنسية والذي كان تحت عنوان مثير هو "موجز العقن" والصادر في باريس سنة 1949، ثم يصبح نقده للولادة هاجسا مركزيا في "مساويء أن يكون المرء قد ولد"، المنشور سنة 1973، والذي قدمه إلى ناشره على أنه "سلة مهملات من المزح والضحكات المرعوبة". بعد "على ذرى اليأس"، "كتاب الأوهام"، "دموع وقديسون" ومرورا بـ "غسق الأفكار"، "القياسات المنطقية للمرارة"، وحتى "إغواء الوجود" و"السقوط في الزمن"، ها هو الإبن الضال، المناهض للفلسفة الجامعية الملساء يعطينا حكمه النهائي في الوجود الإنساني الذي لا يعدو أن يكون سوى ترقيع لما لا يمكن ترقيعه أبدا. إن الثقب أكبر مما يُرْفَع، يقول مثل أمازيغي. كأن سيوران يعود إلى نقطة الصفر، بعدما اختبر عجز الفلسفة وعدم جدواها

(1) Jaudeau, S, Entretiens, éd. José Corté, 1990, p. 34

في عقد مصالحة ما بينه وبين الوجود. عاد إلى التساؤل عن جدوى حضور بني آدم وحواء على وجه الأرض، وعلى الخصوص التساؤل عن معنى وجوده هو بالذات: "وعيت من زمان أن مكاني ليس هنا، وأنه ليس بإمكانني أن أتلاءم أبداً مع دنيا الأرض"⁽¹⁾.

لم يتوقف عن التباكي من كونه محكوم عليه 'بالإنجاد' في هذا العالم السفلي السافل. كان يعتبر نفسه في حالة إقامة جبرية على الأرض. إذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام. نقرأ في "المساويء" أن في "فعل الولادة غياب للضرورة فادح إلى درجة نبقي فاغري الأفواه حينما نفكر في الأمر ملياً. فلا نملك أزاء ذلك سوى اصطناع ابتسامة صفراء". وبما أنني وصلتُ مع سيوران إلى هذا الحد من تسفيه الولادة، فلا أريد أن أحرم القاريء من الإستمتاع بتلك الضربة الكلامية القاضية التي يوجهها للحياة عموماً: "كنت في ما مضى أتساءل أمام الموتى عما جنوه من ولادتهم؟ نفس التساؤل يتتابني اليوم أمام كل الأحياء". "ما أسعد من لم يولدوا أبداً، يقول الرسام فان غوغ، يحملني مجرد تخيل نفسي في وضعهم إلى سعادة لا نظير لها، يا لها من حرية وما أرحبه من فضاء! كان من الأحسن لي أن أكون كما لو أنني لم أكن".

يا ليتني لم أكن أبداً، عدم الحياة أفضل بكثير من هذه الحياة، يشتكي أغلب الناس حينما تتعقد حياتهم اليومية. إذا كان أيوب قد لعن اليوم الذي ولد فيه كما جاء في الأسطورة الشهيرة، لم يكتف سيوران بلعن ذلك اليوم النحاس الذي سقط فيه إلى هذا العالم بل أغرق أيامه كلها في بحر من الشتم والسباب. تعتبر الولادة في نظر عدوها اللدود "كارثة"، "صدفة غير سارة". وهي "خضوع واستسلام" بل "نكبة". إنه

I. E. N, Œuvres, p. 1280 (1)

سقوط حر في ورطة لا خروج منها أبدا. لا يبقى الأمر مجرد وجهة نظر فحسب عند صديقنا سيوران بل يترجم غضبه بعدم الإنجاب: "يمكن أن أقترب أي جرم ما عدا أن أكون أبا"⁽¹⁾. فكل الأخطاء مغفورة إلا هذا! نتذكر موقف الفيلسوف أبي العلاء المعري الذي أضرب عن الزواج والإنجاب كيلا يساهم في ما يسميه بعضهم "المحافظة على استمرارية الجنس البشري". إن الأبوة جنابة لدى العربي أبي العلاء والسرغبة في التكاثر مرض لدى سيوران، حفيده البلقاني. محظوظون هؤلاء الـ 350 ألف مولود الذين يأتون إلى هذا العالم كل يوم. ما كان سيكون مصيرهم لو أن أولياءهم كانوا من أتباع هذا أو ذاك الفيلسوف؟ هل يُقدَّر الأطفال الذين لم أرتكب إنجازهم مدى السعادة التي يدينون لي بها؟ يتخيل سيوران، فكأنه الصدى لبيت أبي العلاء: "هذا ما جناه علي أبي وما جنيت علي أحد". وهكذا لم يفخر الإثنان بعدم الجنابة على أبنائهما المفترضين فحسب بل جعلوا من التكاثر جريمة موصوفة. لا يرى سيوران في الإنجاب غير حركات بملوانية تافهة تتلوها تأوهات حيوانية. الجنس حركات تافهة، بشرة فوق بشرة وانتهى الأمر، يقول رشيد بوجدره⁽²⁾. منذ وصول أوجين يونسكو، عرف العالم أن الرومانيين حينما يشدون الرحال إلى باريس فليس البتة من أجل أن يقولوا للبشرية أشياء سارة. ها هي بعض أخبار على لسان المسرحي الكبير يونسكو تضعنا في جو قريب من جو ابن بلده وصديقه الحميم سيوران. "هناك أمران مرفوضان: أن نولد ثم نموت"، ويضيف أن الوضع الوجودي الإنساني غير مقبول بالمرّة⁽³⁾. "لم

(1) المصدر السابق، ص. 1273.

(2) الجزائر نيوز 8 أبريل 2007.

(3) Ionesco, Un homme en question, Gallimard, p. p. 24 - 32

أمكن من التلاؤم بشكل كامل لا مع الوجود، ولا مع الآخرين ولا سيما مع نفسي"⁽¹⁾. ربما تكرهوا حزنا حقيقيا، تقول حكمة فرنسية، ويكون أحدى وأنفع من فرحة كاذبة.

لا يعتبر مقت الإنجاب أو معاداة الحياة أمر جديدا. فذلك ليس من احتكار ثقافة معينة أو اختصاص عصر من العصور. فلا يكاد يخلو من ذلك تاريخ البشرية بكل أديانها وأعرافها وفلسفاتهما وحضاراتها المختلفة المتباعدة. لم يحترف بنو آدم دوما عبر تاريخهم بالولادة والإنجاب. لا يمكن أن يخطر بأي حال من الأحوال، على ذهن عاقل أن هذا العداء للتكاثر فكرة سيورانية بحتة. ألا تعبر غريزة الموت عن نفسها، يكتب ييار شونو، عبر أسطورة سيلان الغريبة؟ أعظم سعادة بالنسبة للإنسان يقول سيلان، هو ألا يولد... وإن ولد فإن أعظم سعادة هي أن يموت في أسرع وقت ممكن"⁽²⁾. وهو ما يقوله لنا صوت آت من قلب القرن الحادي عشر، صوت الأديب الشامل عمر الخيام الذي كان يرى أن السعيد هو من يلقي حتفه مبكرا والأسعد هو من لم يولد قط. في اللاولادة سعادة وفي الإقامة الأرضية عقاب للبشر لا غير. الأمل لنا هو أن نتراجع عن الولادة، أن نعود إلى الوراء مثلما نلهو برؤية الأفلام عن طريق تسريع الشريط إلى الخلف. لا بل من الأحسن، كما تمنى سيوران يوما، أن نولد شيوخا ثم نصغر فنصغر حتى ننتهي أطفالا! هل يمكن أن يكون فيلسوفا حقيقيا من لم يمض كل حياته متأملا الموت؟ لا، يجب شيشيرون، ما حياة الفلاسفة كلها سوى تخمين لما بعد الحياة وتمعن في الموت. أجهز نيتشه على كل أمل وقطع كل رجاء، نمضي كل حياتنا محاولين أن ننسى أننا سنموت، يقول. ويضيف على لسان نفس

Notes et contre-notes, Gallimard, 1962, p. 135 (1)

Chaunu, P., La mémoire et le sacré, Calman levy, 1978, p. 44 (2)

سيلان: أيها الجنس الطاريء، ابن الحظ والشقاء! لماذا تجبرني أن أقول لك أشياء لا تنال رضاك؟ اسمع إذن أيها الشقي: "أعذب الأشياء في الكون بعيدة عن متناولك: ألا تكون قد ولدت، ألا تكون شيئا. أن تموت في أقرب وقت ممكن ذاك ما هو أنفع لك وأجدى"⁽¹⁾.

حتى المغادرة السريعة نفسها غير مجدية فلا يجني العبد منها شيئا. يؤكد كتاب "المساويء" أن أزمة الإنسان تتعدى الموت عينه، لا فائدة منه أيضا لأننا سنفقد بموتنا مقدار ما فقدنا بمولدنا، كل شيء⁽²⁾. لذلك فلا ينتحر حسب سيوران إلا المتفائلون الذين لم يعودوا قادرين على الإستمرار في تفاؤلهم. أما الآخرون فلماذا يكون لهم ميرر الموت وهم لا يملكون ميرر الحياة! الشر، كل الشر، ليس أمامنا بل من ورائنا. هو ليس أن نفنى وإنما أن نكون. وهو الأمر الذي فات المسيح تماما، يقول سيوران، والذي أدركه بوذا تمام الإدراك. "نحن لانعيش أبدا حسب الفرنسي باسكال، نترجى العيش فقط". ضحكنا فكان الضحك منا سفاهة وحُق لسكان البرية أن ييکوا، صدق أبو العلاء المعري، لأن الأيام تكسرنا في كل لحظة ولا يعاد لنا أبدا سَبْكُ. كثيرا ما نعثر على هذا العداء للتوالد والتكاثر لدى العديد من الحركات الدينية وبعض الملل والنحل كالبيوغوميل والمانويين.. هؤلاء الذين وصفهم سيوران نفسه بأنهم أصحاب بُعد نظر، وبالأناس غير القابلين للتضليل. يمكن أن ندرج البوذيين ضمن عائلته الفكرية أيضا لا لشيء سوى لكون بوذا قد وضع هاوية الولادة كمصدر لكل الآلام وذلك قبل الشيوخوخة والموت. لا يفوت قاريء كتبه والمطلع على ما جاء في مقابلاته مع الصحافة أن غذاءه الأدبي والروحي وكل صداقاته الفكرية تذهب في

Nietzsche, Naissance de la tragédie, trad. G. Blanquis, Gallimard, p. 32. (1)

I. E. N. p. 1305 (2)

نفس الإتجاه، نحو تبخيس الحياة دائما. فالسيدة ديفون المعجب بها والتي يكن لها كبير الإحترام والتي كثيرا ما ذكرها في مؤلفاته، كتبت ذات قرن قائلة إلى فولتير: "الحزن والمغضب هو أن نأتي إلى الحياة، ولكن يمكن أن نقول عن هذا الداء أن علاجه أكثر منه شرا". وعن طامة الولادة الكبرى يكتب الدانماركي كير كوغارد دون أدنى مواربة: "أنا، عندما يولد مولود، أدخل في حداد وأتذرع من الله ألا يصل إلى سن الرشد". لم يفعل سيوران سوى تثنين وتبني بعض المواقف التحقيرية التي كانت موجودة سابقا لدى بعض التقاليد العريقة في مناهضة الحياة. تكمن إضافته النوعية في دفع الإستفزاز إلى حدوده القصوى. لقد انتقم مع مرور الكتب والتصريحات الصحفية والمراسلات الشخصية انتقاما أدبيا من الحياة. لقد جذر المعارضة. ثار ضد أولئك الولودين المجانين وندد بـ "التناسل والتكاثر" ذاك التنظيم الغريب للنسل الذي تدعو إليه الديانات التوحيدية. وصف الحياة تارة بـ "الأكال الذي يسري على وجه الأرض" وبـ "الوباء" في مرات أخرى. "أعتقد أن إقامة امبراطورية يكون أسهل لي بكثير من تكوين أسرة"، يقول في شذرة من أجمل ما كتب من شذرات. إنه الشطط بعينه أن يولد الإنسان وبلد بدوره، أن يرث ويورث الزلل. ما الحياة إلا الهوس متجسدا، فلماذا المساهمة في هذا المسخ؟ لنقطع الطريق في وجه هذا الهذيان! كفى! "لا أولاد" No Kidding هكذا يطلق على جمعيتهم أمريكيون متحدون ضد الإنجاب. أما في باريس التي أقام فيها سيوران فقد صدر في صيف 2007 كتابا طريفا عنوانه مؤلفته "لا أولاد. أربعون حجة ضد الإنجاب"⁽¹⁾. أربعون فقط! كان يمكن لسيوران أن يعلق ضاحكا. لقد تعودنا مع الوجوديين قبلئذ

(1) Corrine Maier, Quarante raisons de ne pas avoir d'enfants, éd. Michalon, 2007

على تلك النظرة المنددة بهذه الحياة الناقصة، غير المكتملة، والنظر إليها بعين الريبة وعدم ائتمان جانبها بل وتحويلها إلى نقطة استفهام كبرى. ولئن كانت رهن التحقيق دوماً وفي قفص الإتهام في أحيان كثيرة لدى سارتر وكامو وإخوانهم في الفلسفة، فإنها تبقى قابلة للتحسن افتراضياً. تبقى على الأقل محافظة على حقها في الإستئناف والظعن. "إن الحياة التي أحيأ ليست حياتي"⁽¹⁾، يكتب كيركوغارد، فكأنما يأمل في حياة أخرى، حياته الحقة.

على نقيض مؤلف "مصنف اليأس" وأكثر الدانماركيين شهرة وعلى عكس جمهور الوجوديين الآخرين على اختلاف مشاربهم، يدفع سيوران بهجومه على الحياة إلى مداه الأقصى. يستعمل الأسلحة الثقيلة بل تلك المحرمة دولياً. يحكم على الحياة حكماً سلبياً مؤبداً "الولادة والحبس صنوان تبصر النور فترى القيود"⁽²⁾. ماذا يقول لقارئه عن هذه الحياة الدنيا التي لا تستحق أن تعاش؟ "لقد هجوتها على الدوام وكل ما قلته فيها يبقى صحيحاً. فلست مستعداً لحذف كلمة واحدة مما قلت"، يؤكد في كتابه "الخالق السيء"، كتابه الحادي عشر المنشور سنة 1969. وكان ذلك قبل صدور "المساويء" و"التمزقات" و"تمارين الإعجاب" وآخر كتبه "اعترافات ولعنات" والتي كانت في مجملها كتب حرب حقيقية ضد الحياة، وإن كانت حرباً طريفة، كان القصف فيها بعضاً القهقهة وأناقة العبارة ولسعات الهزل والمزح الأسود إذ قبل أن تكون الحياة هنة كبرى فهي في نظره، قلة ذوق لا يصححها لا الموت ولا الشعر...

منذ "على ذرى اليأس"، كتابه الأول، الصادر في بوخارست سنة 1934 حيث لم يكن قد تجاوز الحادية والعشرين خريفاً إلى آخر كتاب

Journal, 1839 (1)

Le mauvais démiurge, Œuvres, p. 1249 (2)

نشره سنة 1987⁽¹⁾ وكان قد بلغ من الحزن عتياً، بقي غضبه الأدبي هو هو. خمسون سنة كاملة تفصل بين الكتاب الأول والأخير ولم يغير من مواقفه قيد أنملة. لم يفعل سوى العودة بطرق مغايرة إلى حبه القديم. زيارات تفقدُ ليس إلا، كما يقول هو نفسه. وتبقى الحياة كما عهدتها في شبابه "غير ممكنة وغير معقولة". ليس لها معنى ولن يكون لها معنى أبداً. فما العيش إلا "افتراء على النفس وعلى الغير". حكم على الحياة بالإعدام، "لم أقتل أحداً كان يقول، لقد فعلت أحسن من ذلك بكثير، لقد قضيت على الممكن". هل يمكن اعتبار منطوق حكمه هذا صدى لمقولة هيجيسياس، التي قيلت منذ ثلاثة وعشرين قرناً مضت: "لا تبدو الحياة معقولة إلا لمن لا عقل له". وهل هي الرد القاتل على استغاثة كيركوغارد: "اعطوني ممكناً وإلا اختنقت!"⁽²⁾ لكن كانت كتابته ذات رائحة عطرة، يبدو سيوران لأول قراءة موزع يأس ومثبط عزائم بامتياز ولكن يبقى تشاؤمه وتطيره من أعذب ما يقرأ قارئاً، بل يتحول ذلك النظر السوداوي إلى سعادة أدبية فعلية كي لا أبالغ وأقول أنه يدفع قارئه إلى تفاؤل ما. تعطي كلماته الجميلة ضد الحياة "المرّة" معنى ما للحياة رغم أنف قساوة الألفاظ المستعملة.

(1) اعترافات ولعنات.

(2) Traité du désespoir, Gallimard, 1973, p. 142

ذلك الرجل الهنفي في وعيه !

"الوعي بالزمن مؤامرة على الزمن"

سيوران

لقد سبق وأن رأينا في صفحات سابقة كيف استعار سيوران لغة العيادة والمرض ليصف الحياة "أكالا"، و"وباءً حقيقياً" على وجه الأرض. ولكنه يجد في كل علة أو مرض عضوي شيئاً من "الخصوبة" بل يجد في الباتولوجيا "مُولداً للأحاسيس والأفكار". فما شعر بودلير وفلسفة نيتشه وروايات كافكا سوى نتيجة مرضهم: "دخلت الفيزيولوجيا مع بودلير إلى مملكة الشعر ومع نيتشه اقتحمت عالم الفلسفة. معهما ارتفع اضطراب الأعضاء إلى مرتبة النشيد والتصور العقلي. حُرماً من الصحة والعافية، يقول الدكتور سيوران مُشخصاً، فتوجب عليهما ضمان مستقبل مهني للمرض"⁽¹⁾. ينظر إلى دوستوفيسكي على أنه الشخص الذي حوّل حالاته المرضية إلى رؤى. فـ "العمق من احتكار الذين تعذبوا"⁽²⁾. رب ضارة نافعة. لو نجح الأطباء في إبراء كافكا من قلقه وقرفه، وبروست من ربوه وبودلير من داء الزهري... لكانوا قد حرموا الإنسانية من أدب أساسي! ولكن

Cioran, Syllogismes de l'amertume, Œuvres, p. 749 (1)

Cioran, Entretiens, Gallimard, 1995, p. 228 (2)

أليس من المبالغة اعتبار الشقاء ملازما للإنسانية في عمومها انطلاقا من تجربة شقاء ذاتية؟ هل يمكن رفع العذاب الشخصي إلى رؤية للعالم؟ يتأسف سيوران ذاته من عدم المعاناة من مرض جدي. لندعه يقوم بتشريح وتشخيص حالته: "أنا رجل هائج بعض الشيء. من النوع الفالست من مرض الصرع. لم يكن لي الحظ في أن أكون مصابا بالصرع. لو كنت مصابا بمرض حقيقي لشكّل ذلك لي خلاصا. ولكنني عشت باطنيا دائما لأنني لم أجد منفذا خارج ذاتي"⁽¹⁾. "أحسن ما قممت به، يقول لنا، فيتز زورن، هو الإصابة بداء السرطان.. فمنذ أن مرضت، بدأت أرى الأشياء أحسن بكثير مما كنت عليه قبل المرض"⁽²⁾. ها نحن أمام كوجيطو من نوع آخر: "أنا أعاني إذن أنا موجود". لقد تعودنا مع كثير من الفلاسفة والكتاب، على تأمل الألم الإنساني، عسر الوجود، والضياع في العالم، وعلى الخصوص التفكير في القلق.. ها هو سيوران يدفع بالتأمل في تلك المعاناة، مرة أخرى، إلى أقصى مدى ممكن. لم يكتف بإضفاء هالة متميزة على المرض، لكي لا نقول علاجية، بل ذهب إلى اعتبار المرض أهم شرط من شروط انبثاق الجانب الإنساني في بني آدم. "كان المرض على رأس قائمة العوامل التي أدت إلى ظهوره"⁽³⁾. "كيف أصبح الإنسان ممكنا؟" يتساءل، ويأتي رده على أهم الأسئلة على الإطلاق في جملة قصيرة سريعة، فسر من خلالها تاريخ التطور الإنساني الطويل: "إذا كان الإنسان قد انفصل عن مملكة الحيوانات فبدون شك لأنه أكثر قابلية منها للتأثر بالأمراض"⁽⁴⁾. يبقى

(1) نفس المصدر ص. 31.

(2) Fitz Zorn, Mars, Folio, Gallimard, 1979, pp. 33, 34

(3) Cioran, La chute dans le temps, Œuvres, 1131

(4) Entretien, p. 25

المرض في نهاية الأمر ذلك اليقين الذي يدل على واقعية العالم. إنه شرط حالة الوعي أساسا. فلا وعي ولا أدب عظيم بمنأى عن الألم. يحكي لنا عن مقابلة له مع الفيلسوف الفرنسي المسيحي تيار دو شاردان، سأله فيها عن رأيه في "المعاناة والألم"، فأجابه على أنهما مجرد حادثين عارضين في مسيرة التطور. "انصرفت رأسا، يقول، وأنا في أشد السخوط، رافضا الإستمرار في الحديث مع إنسان معتوه"⁽¹⁾. تناول في كثير من شذراته العلاقة الوثيقة بين الألم والوعي. خصص للموضوع فصلا كاملا في كتابه "السقوط في الزمن" حيث يقول فيه بالحرف الواحد أنه "إذا ما كنا في صحة جيدة، فنحن غير موجودين، أو بالأحرى نحن لا نشعر أننا كذلك". وهو ما ذهب إليه أدورنو حينما رأى أن فسح مجال التعبير للمعاناة هو الموضوعية عينها. فلا يتم التعبير عن الألم إلا بشكل موضوعي. أما الفيلسوف باسكال فقد رد على إلحاح أخته التي كانت تنصحه بالإعتناء بصحته كاتباً: "أنت لا تعرفين مساويء الصحة ولا محاسن المرض". "أنبغ ما في الحياة الألم"، قال ألفريد سوفي كاتباً عن الموسيقار بتهوفن. لا يقول سيوران شيئا آخر حينما يكتب دائما في "السقوط في الزمن"، أن "المعاناة إنتاج للمعرفة". في توسلها إلى طبييها المعالج، تلخص فتاة، تعاني من مرض عضال، موقف أدورنو وباسكال وسيوران في كلمات بسيطة لكن مدهشة: "ساعدي على التخلص من الألم الذي يعذبني، تقول، لكن اتركه لي لأتمكن من الوجود"⁽²⁾. حينما نعاني، نكون أقرب إلى ذاتنا، بل نحس بكيثونتنا الكاملة، لأن الألم والمعاناة، يقول سيوران في نفس الكتاب، هي أحسن المسالك للوصول إلى حالة من عدم التوافق مع

Entretiens, p. 228 (1)

Revue Française de psychosomatique n°15 (2)

العالم. فلا تتحرر عن طريق عبقريتنا أونكف عن كوننا دُمي، يلاحظ سيوران، وإنما بفضل الآمنا وحدها. إذ لا يكون صاحب عمق نظر من لم يكابد ومن لم يعان⁽¹⁾. لكن ما الفائدة من هذه المعرفة؟ ما جدواها؟ هل يمكن أن تكون خلاصا للذات المتألّمة؟ أبدا، يجيب سيوران. إنها معاناة أخرى، إذ "أن المعرفة هي التي أبعدتنا عن الوحدة الجوهرية، عن النظرة المتعالية..." كلما زادت معرفتنا، كلما ازداد عجزنا في إيجاد استقرار أو توازن ما. عندما يكون الجسد مصابا بمرض جدي، وحينما يجد الإنسان نفسه في أتم العجز عن العيش والفعل، يكتب البابا يوحنا الثاني، يصبح النضج الداخلي والسمو الروحي أكثر بداهة وتجلٍ، ويعطى ذلك درسا مؤثرا وبلغا للذين يتمتعون بصحة عادية⁽²⁾. في مؤلفه "المعنى المسيحي للعذاب"، يتطرق البابا يوحنا الثاني نفسه إلى شهية العذاب قائلا: "لقد علمنا المسيح أن نفعل الخير عن طريق الألم وأن نحسن للذي يتألم"⁽³⁾.

لئن قربتنا المكابدة من الله حسب الديانة المسيحية، فإنها تقربنا أكثر فأكثر من المعرفة حسب سيوران. فكأن المرض هو القاعدة والصحة الإستثناء! في نفس "السقوط في الزمن"، لا يترك سيوران أي مجال للشك حول أضرار ذلك الوعي اللعين: "ما عسانا نتظر من مسار بدأ أصلا بخرق للحكمة، بخيانة نعمة الجهل التي جُبلنا عليها". خيانة، عذاب، تمزق.. كلمات تُذكرنا بعبارة نيتشه القائلة "كأن الطبيعة تعن وتتحب لرؤية نفسها مقطعة إلى أفراد". نتج عن تفرّد

(1) La chute dans le temps, p. 1072

(2) Jean Paul II, Le sens chrétien de la souffrance, éd. Pierre Tequi,

1984, p. 73

(3) نفس المرجع.

البشر من جراء تراجيديا الولادة ضياع في الزمن، واغتراب أبدي في هذا العالم. إذا كان فرويد يرى أن الأنا لا تكون أحيانا سيدة في عقردارها، فإن سيوران يراها دائما في منفى في هذه الدار(الذات) لأن الدار ليست دارها. فكأن الإنسان غير كامل الصنع! بل هو شيء كان لا ينبغي أن يكون أصلا كما يقول الفيلسوف شوبنهاور.

يدشن منفى الإنسان في الزمن، في المحدود، عهد الوعي الذي يفتح بدوره هوة بين الذات والعالم. "لم تمض لحظة واحدة لم أكن خلالها واعيا أنني موجود خارج اللجنة"⁽¹⁾. على رفضه الجذري للديانات، أجد أنه يشترك معها في أمر يشكل جوهرها: رفض الحقيقة البيولوجية، رفض الاعتراف بالنهاية المطلقة بانتهاء الجسد! لا يكل من العودة في مجمل كتبه إلى التأكيد على أن الوعي هو في نفس الوقت مصدر ونتيجة كل مصائب البشر. هو ابن وأب الشر، إنه الجرح والسكين. فحتى الدودة لو كانت واعية، يخبرنا سيوران، لكابدت نفس المصاعب، ولصادفها نفس المستحيل الذي يصادفنا.

يعتبر الإنسان مقارنة بالحمار وبسرطان البحر حيوانا مريضا، إذ أن الوعي في حد ذاته مرض، هكذا يكتب ميغال أونامونو سنة 1937 في كتابه الذائع الصيت بين جمهور الفلاسفة، "الشعور المأساوي بالحياة". أما سيوران فينتقل بالفكرة إلى سرعة أخرى واضعا مفاضلة تسلسلية: "من الأحسن أن أكون حيوانا بدل إنسان، وحشرة بدل حيوان، ونبته بدل حشرة، وهكذا دواليك.."، بالجملة والتجزئة، "لا أرغب أن أكون إنسانا... أحلم بشكل آخر من الإنحطاط". يفككتنا الوعي ويرمينا بعيدا عن الوحدة الأصلية، إنه منفانا الحقيقي فـ "الجهل وطن

I. E. N. p. 1288 (1)

والووعي منفي". الوعي لعنة مزمنة، كارثة مهولة. لكن "الووعي" بمعنى ووزن المتنبّي "ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم". إن وعينا هو الذي ينبهنا لوجود البشاعة في العالم. "أردنا أن نكون ذواتا وكل ذات هي قطعة مع طمأنينة الوحدة"⁽¹⁾. تبا لنا، نستحق كل ما لحق بنا! يرى ألبير كامو أن "لا أكثر مأساوية من كائن سعيد". أما صاحبنا فيرى أن المتفائل هو ذلك المسكين الذي لا تتوفر لديه كل المعطيات. "لا عسرأشد من احتمال سلسلة أيام جميلة"، و"من على قمم العقل تبدو لنا الحياة كلها كمرض عضال والعالم كملجأ مجانين"، يقول غوته. كثيرا ما تحدث سيوران عن كتاب ألفه كاتب ألماني مغمور، يقول عنه أنه من أردأ ما قرأ من كتب إلا أنه يحمل عنوانا من أروع ما يمكن، عنوان لم يحمله كتاب قط، ألا وهو "مصيبة أن يكون المرء واعيا". لا عجب في إعجابه بالعنوان إذ أن العبارة تلخص في زأبي حياته كلها. ألم يكن يعتقد أنه كان واعيا فوق اللزوم وهو ما عكر صفو حياته وجعلها شبه تراجيدية؟ الووعي شرح وخلاف مع العالم، إنه ليس مجرد شوكة بل هو خنجر مغروس في عمق الجسد⁽²⁾. أن نتسيه ولا نعرف أين نمضي، ذلك هو وضع الإنسان التراجيدي، المنفصل عن المعنى، يؤكد الفيلسوف باسكال أما أرتو الشاعر فيلاحظ: "حينما أتساءل، لا يجيبني إلا العدم ذلك الفراغ الفظيع الأليم". أين المفر أمام هذه الطامة الكبرى؟ هل هناك حل ما؟ نعم، يقول سيوران. ما العمل؟ "كل ما يقلل من هيمنة الووعي ويعيد النظر في حيروته". ألا يتوق الإنسان إلى العودة إلى الوضع الذي كان

La tentation d'exister, Œuvres, p. 828 (1)

I. E. N., p. 1299 (2)

عليه قبل الوعي؟ أليست الطريقة الوحيدة ضد "الأنا، ضد شر التفرد، ضد تأثير حالة الوعي المضنية". لنرفع الكؤوس على نخب الجهل، لنسكر، لنفلت من حالة الوعي! ألا يقول لنا باسكال أن في قينة النبيذ من الفلسفة ما يفوق كل ما في الكتب؟ إذا كان الموت شيئا مقدرا فمن العار أن تموت صاحيا، يقول أحد الأجداد المؤمنين. في مسألة الخلاص التي أرقته، نجده كثيرا ما يلجأ إلى الإستئناس بالمذاهب الغنوصية، التي تقترح هي الأخرى خلاصا خارج إطار المعرفة العقلية. لا يخفي إعجابيه في "الخالق السيء" بالغنوصي باستيليد: "من العقول القلائل التي فهمت في بداية عصرنا ما أصبح اليوم أفكارا عامة، وهي الأفكار التي تشترط خلاص الإنسانية بوجوب عودتها إلى حدودها الطبيعية، من خلال الرجوع إلى حالة الجهل الأولى"⁽¹⁾. فالجنة هي حيث لا نفهم، يقول. يا معلمي العالم أغلقوا كتبكم! ويا تلاميذ رتبوا أدواتكم! فقد حان وقت التسلية الأبدي، لنغلق المدارس كلها! يا قوم ناموا لا تستيقظوا ما فاز إلا النوم، وظلوا في جهلكم فالشر أن تتعلموا. تمنيت أن أقرأ هذا البيت على مسامع سيوران، ولكن سبقني إليه مرض الألزيمر اللعين. ينبغي على الإنسان أن يتجاوز حالة الوعي وأن يترك مغامرة المعرفة، ينصحنا العم سيوران في "كراس تالامنكا"⁽²⁾.

كيف يمكن أن نكون في عالم بدون وعي؟ على أحسن ما يرام، يمكن أن يجيب. فمرحبا أيها الجهل في مملكة سيوران! أنت لست منفى كما زعم اسبينوزا، بل أنت خلاصنا، علينا أن نجعلك ضرورة، لا مفر منها. "اعتراض ضد العلم، هذا العالم لا يستحق أن نعرفه"، كتب

Le mauvais démiurge, œuvres, p. 124 (1)

Ed. Mercure de France, 200, p. 16 (2)

صاحبنا ذات عام. كان التفردن (التحول إلى فرد مستقل عن العالم) كمعاناة وشقاء، الوعي الشقي، والأنا كوجع من الثيمات التي جرى التأمّل فيها سابقا من طرف الربيين اليونان وغيرهم وقد احتلت هذه المسائل مكانا مركزيا في صفوف البوذية على وجه الخصوص. إلا أن أصالة سيوران قد تمثلت في نبرته الخاصة، في الإخراج، في الديكور الذي يقترحه، كدت أقول على مشاهديه. وتكمن جدته، أيضا، في المسافة التي يضعها بينه وبين معظم المفكرين والمذاهب. ها هو يفصل قولاً، بل يتبرأ تماماً من سلفه الغاضب نيتشه: "لقد آمنّا مع نيتشه بديمومة حالات الوجد، إلا أننا، وبفضل نضح استخفافنا بكل شيء، ذهبنا أبعد منه كثيراً، فعدت فكرته عن الرجل الأسمى مجرد وهم بالنسبة لنا، وهكذا سقط من كان يسحرنا أيام الشباب"⁽¹⁾. يعترف الروماني أنه مشى شوطاً مع الألماني ولكنه رفض فكرة السوبرمان وامتداداتها: تغير القيم، إرادة القوة وغيرهما. يعتبر سيوران مملكة اللاجدوى أفضل مكان في العالم. فمن البدهاة أن يشك في محاولة تغيير العالم الشهيرة التي جاءت بها الماركسية: الخلاص الشيوعي. أليس هو القائل في 'مخطط الدوار': "تبدو كل طوباوية في طريق التحقيق كحلم مزعج"⁽²⁾. "كلما قرأت المتشائمين أحببت الحياة أكثر"، يكتب في "دموع وقدسون" ولم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين بعد. "أتصرف وأستجيب كعاشق سعيد بعد كل قراءة لشوبنهاور". لكن إن كان شوبنهاور محققاً في اعتبار الحياة مجرد حلم، فإنه يرتكب كبرى الكبائر في نظره عندما يعري الأوهام بدل تشجيعها، موحياً بوجود شيء آخر غيرها.

(1) Syllogismes de l'amertume, p. 761

(2) Cioran, Ebauches de vertiges (extrait de Ecartèlement), Gallimard, 2004, p. 12

لم يشف غليله حتى جهاذة التشاؤم أنفسهم، فاعتبرهم سدجا وراح يسقطهم الواحد تلو الآخر. لم يرض بل خاب ظنه في كل أصناف الخلاص التي اقترحها الفكر الغربي، فأتجه نحو الفلسفة الشرقية، لعله يجد فيها ضالته. ألا نقول أنه كلما وجد الفكر الغربي نفسه متخبطا في شرك تناقضاته، ينحو نحو الهند، مهد النظم الروحية؟ في اليوم الذي قرأت فيه قائمة كل الكلمات التي تتوفر عليها اللغة السنسكريتية في الإشارة إلى المطلق، يقول متأسفا، تيقنت بأنني أخطأت سبيلي ووطني ولغتي⁽¹⁾. لم تغب أبدا، بقت مسألة الخلاص حاضرة في التأملات السيورانية بشكل أو بآخر.

حاول في أول الأمر أن يجد مفتاحها أو بالأحرى مفتاح خلاصه في الإرث الروحي السيودي وتحديدًا في مبدأ الزهد والتخلي عن كل شيء، الأمر الوحيد غير المهين في رأيه. فلا يتأتى الخلاص إلا عبر الترفع عن تفاهات الحياة. "أمثل الحالات، يكتب متصوفنا الباريسي في 'خالقه السيء'، هي تلك التي تتخلى فيها عن الأشخاص والأشياء دون أدنى عناء"⁽²⁾. أما الصحة فإنها "تكمن في التمرين والفراغ، في العضلات، وليس في الفكر على الإطلاق"⁽³⁾. لنعتن بعضلاتنا، ولنترك عقولنا تستريح! لنشيد قاعات لممارسة بناء الأجسام! لنعوذ بالجهل من شر العلم ومن شر الوعي الوسواس!

أن نكون أو لا نكون؟ ليست تلك هي المشكلة. لا هذا ولا ذاك. فما الأمل سوى الشكل العادي للهديان، بل أفيح من ذلك، فهو في نظر سيوران فضيلة العبيد. تلتقي نظرتة للوجود مع المذاهب الروحية

I. E. N., p. 1313 (1)

Le mauvais démiurge, p. 1221 (2)

(3) نفس الصفحة.

أكثر من التقائها مع المذاهب الفلسفية الكلاسيكية. ليست السعادة في الرغبة بل في انتفائها، فلا تعمرونا إلا في حالة غيابها الكلي، فقط عندما نصل إلى الشعور بالإمتلاء أو الفيض بلغة أهل التصوف، نعم بنشوة الأبدية وحضرة المطلق أو كما يقول أصدقاؤنا المتصوفة "سفرة المنتهى". يطغى هنا الجانب الشرق - أقصوي للروماني. السعيد السعيد من فقد كل أمل، فالأمل عذاب لا يطاق واليأس نعيم عظيم. فماذا باستطاعتي أن أعرف؟ ماذا ينبغي عليّ أن أفعل؟ ما عساني أن آمل؟ "لا شيء، لا شيء"، لا خوف من وضع هذه الإجابة على لسان "أبي علاء القرن العشرين" للرد على ثلاثية إمانويل كانط التساولية الشهيرة! مثله مثل ديوجان ذلك "المهيسي المبكر"، فبغض النظر عن تلميحات هنا وهناك لم يقترح سيوران شيئاً ملموساً من أجل خلاص البشرية. فكل الطرق تؤدي إلى الهلاك في نظره. يقترّب من نظرة صديقه سامويل بيكت الذي يقول: "يقترح المفكرون الشرقيون مخرجاً، وأنا أعتقد عدم وجود ذلك. لاجل إلا الموت". لكن حتى الموت، لا يمثل حلاً في نظر سيوران! فهل طعم العدم بعد الموت هو نفسه قبل الولادة؟ تذهب تأملات وأفكار سيوران كلها نحو تمجيد حكمة واحدة هي محاولة العيش بدون أدنى هدف. "فحينما نفقه ألا شيء على الإطلاق يستدعي الإهتمام، نصل إلى مرفأ النجاة ولكننا نصبح أشقياء وإلى الأبد". إنها حكمة الهلاك والعدم. على الرغم من ودّه وصداقته لمبديء البوذية الكبرى والتي نبجدها متناثرة في معظم كتبه وعلى وجه الخصوص في فصل من فصول 'الخالق السيء'، إلا أنه لا يدعي أنه كان في يوم من الأيام بوذياً مؤمناً. "أنا بوذي فيما يخص استنطاق الألم، الشيخوخة والموت فقط. ولكن حينما يقول بوذا: والآن اقتلوا الرغبات وانتصروا على الذات وأهوائها! لا أستطيع". فلماذا هذا

العجز إذن؟ لأنني عشت في الأدب، يشرح لنا، فكل ما كتبه يدور في العمق حول شخصي، حول أناي. وهذا يتناقض تماما مع روح البوذية. زد على ذلك، أنه من العبث واللاحدوى البحث عن النجاة، يقول، في حالة ما إذا لم نكن نؤمن بالتناسخ⁽¹⁾... ولم يكن مؤمنا ببدوية الأرواح. فكأنه يصل إلى عنق الزجاجة، إلى طريق مسدود. إذا كان هناك مشروعية للحديث عن خلاص ما، فلا يمكن الإقتراب منه إلا في بُعد ذاتي متفرد: "لا يمكن أن يكون إلا إذا كان نابعا منا، يكتب في 'إغواء الوجود'، فلا يجب البحث عنه بالمرّة في مكان آخر، في منظومة جاهزة أو في مذهب شرقي ما". أين المفر إذن؟ يمكن أن نجد لسيوران نسبا روحيا في كل مكان ولا نجد له ذلك في أي مكان أيضا. تظهر "كراساته" المنشورة بعد وفاته وبشكل جيد كيف كان يستل آراءه من النوادر والحكايات البسيطة، من القراءة ومن معايشة الآخرين. لم يصل سيوران في مشواره الفكري الطويل إلى طمأنينة غير تلك التي فرضها تقدمه في السن. فإن لم يصل إلى السلم الفلسفي فلقد عثر على أثن من ذلك بكثير ألا هو تفرّده. "عشت حياتي كلها، يعترف، وأنا أشعر أنني أبعدت من مكاني الحقيقي. لو لم يكن لعبارة "المنفى الميتافيزيقي" أي معنى، فحياتي وحدها تهبها معنى". ف "أنا غريب في نظر البوليس وفي نظر الله وحتى في نظري أنا". يرى نفسه متشردا ميتافيزيقيا، قريبا من الرواقيين الذين عاشوا في نهاية الإمبراطورية الرومانية والذين كانوا يعتبرون أنفسهم من "مواطني العالم"، وهي طريقة أخرى في التعبير على أنهم لا ينتمون إلى أي وطن. "إنسان يحترم نفسه هو إنسان بلا وطن"، يلاحظ فيلسوفنا. ويتنبأ بأن عصرنا سيكون موسوما برومانسية معدومي الجنسية.

Entretiens, p. 83 (1)

ليس من الغريب أن نراه يختم مغامرته بمجرد لتجربته الروحية والفلسفية معترفا بطريقة تثير مزيجا من الشفقة والإعجاب: "على كل حال، لم أهدر وقتي، تلملت كغيري، أنا أيضا، في هذا الكون الضال". هكذا حكم على تجربته عبر آخر جملة في آخر كتاب "اعترافات ولعنات"⁽¹⁾. فكأنه يعترف أنه قد مارس فضيحة الحياة كغيره وهو مستعد لممارسة فضيحة الموت أيضا. يمكن أن يقول مع فاليري "لقد كرهت نفسي وعبدتها، ثم هرمتنا معا". لكن إذا كان أيوب قد تاب في النهاية وقال معترفا بقدره ومستسلما: "أسحب شكواي"، فإن سيوران قد أبقى على شكواه إلى آخر المشوار، فكأنه "من الخطر العيش ولو يوما واحدا"، كما تقول عبارة فيرجينيا ولف⁽²⁾. وربما تكمن أصالته في هذا المزاج الغاضب والمرح في آن، والذي يعطي نفسا غنائيا لكتابه، تلك الكتابة ذات الطعم السير - ذاتي والتي تبقى في غليان دائم، وحيلى بفكر شخصي عميق ولكن دون بلوغ غاية ما ودون استسلام نهائي. "الشعور بأننا كل شيء والبداهة بأننا لا شيء"، كما كان يقول بول فاليري.

(1) Aveux et anathemes, p. 1724

(2) Virginia Wolf, Mrs Dalloway

هل تتوافق الكتابة الأدبية

مع الفكر المتشائم؟

"لا أسلوب مع اليقين. الإشغال بتجويد القول من مميزات من لا ينامون على عقيدة. إنهم يتعلقون بالكلمات، تلك الشبيهة بالواقع، في غياب الأرضية الصلبة. أما الآخرون الأقوياء بقناعاتهم فيهبزون بمظهر الكلمات ويسترخون في الإرتجال"

سيوران

في محاضرة تحت عنوان 'تمارين الحقد، سيوران ومستقبل رومانيا'، ألقاها أمام جمهور غفير في الجامعة الصيفية بحزينة الذكر، مدينة تيميشوارا الرومانية، تحدث إيون فيانو عن الدور الذي لعبه الحقد في بحث سيوران الروحي، ها هي ترجمة لبعض أسطر اخترتها منها، لدلالاتها على موقف المحاضر الناقد: "ظل سيوران قرابة نصف قرن الشاهد على المعركة التي واجه فيها نفسه والقوى الخارجة عن الزمن والتي تولد الزمن في آن. لقد عاش وهو شاب يافع بعض حالات، لمح أثناءها بعض "ما وراء". ولكنه حينما أدرك أن تلك النعمة قد ولت

دون رجعة وإلى الأبد، سقط في كآبة مهولة وكان من المحتوم عليه اختلاق الحيل ليتمكن من الإستمرار في العيش. وكان من أهمها ممارسة التعصب والحقْد. لئن ندم بعد ذلك وحاول تجريب الشك والسخرية، فإن الغضب لم يفارقه إلا بعد أن نال منه الوهن والملل⁽¹⁾. ها هو صاحبنا يُلخص ويُحصِر في مجرد حنين إلى حالة من الوجد قد نعم بها ذات يوم! في كتابه 'سيوران المهترق'⁽²⁾، يذهب باتريس بولون إلى أبعد من سابقه فيانو، فيتحدث عن "ولادة ثانية لسيوران"، ابتداء من 1949، سنة نشر 'موجز العفن'. كتابه الأول باللغة الفرنسية.

إذا كان فيانو يتحدث عن بحث سيوران عن حيل وإخراج سيناريوهات بغية تجاوز ماضيه، ويلمح ضمنا إلى معاداته للسامية في مرحلة الشباب، فلا يرى باتريس بولون في أدب وفلسفة المسكين سيوران سوى محاولة تَنكُر لذاك الماضي غير المشرف وتطهير ونقاها من كل ذاك الذي عاشه في بلده الأصلي: كتاباته هروب من انزلاقات الشباب وتكفير عما فكر وكتب في تلك المرحلة الرومانية. لم يكن مستجوب العدم سوى مُواربا كتوما إذن! تساءل رولان جاكار، من جانبه، عما إذا لم يكن من الواجب النظر إلى شك سيوران المطلق لاحقا على أنه تعبير عن ندامة وتائب ضمير شديدين؟⁽³⁾

صراحة أو تلميحاً، يعيد الكثير من النقاد إلى الواجهة التحولات رومانياً، ذلك الكتاب الذي أصدره باللغة الرومانية سنة 1937، وهو كتاب ذو اتجاه قومي يحتوي على أفكار معادية للسامية والأجانب، لا أريد أبداً تبييض تلك الصفحة السوداء من حياته، إن قلت أن ما

Lectures de Cioran, p. 99 (1)

Patrice Bollon, Cioran l'hérétique, Gallimard, 1997 (2)

Le Monde du 12 mai 1995 (3)

كتبه لم يكن غريبا عن ابيسيكولوجية مرحلة الثلاثينات. من السخافة أن نعتد عليها لتصنيف سيوران ضمن قائمة المفكرين الفاشست، قال لي يوما الأستاذ والفيلسوف الفرنسي فيليب لاكو لابرت في جامعة استراسورغ. أفكار تَبْرَأُ منها سيوران ذاته واصفا أياها بالغباء وبالغرور. لقد قيل الشيء ونقيضه بشأنه، كان عرضة لترسانة من الألقاب، قاسية أحيانا ومثيرة للشكوك أحيانا أخرى. هو "بطل الحقدا"، "الغاضب الدائم"، "المتسكع صاحب الأفكار السوداء"، "الكلبي المسعور"، "الهاوية"، "الفاشي" وغيرها من عناوين الكتب والمقالات. لا تعد ولا تحصى الرصاصات التي أطلقت على "رسول الشؤم" و"نبي التحلل والدمار"، وقد أفلحت في تقديم كاريكاتور لا يمت لسيوران بصلة في أحيان كثيرة. "هل كان سيوران دنيويا مرحا متكبرا في ثوب مُهرج حزين أو ساخط لا يبرأ، يتصنع الضحك؟" يؤكد سؤال إذاعة فرنسا الثقافية الذي طرحته سنة 2007، مرة أخرى صعوبة نمذجة الرجل أو تصنيفه. تساءل الكثيرون عن مدى توافق "سيوران الأسلوب الأخاذ" و"سيوران عالك المرارة". يذهب الكاتب يونسكو إلى حد الحديث عن كآبة مفتعلة غير أصيلة لدى ابن بلده، مؤكدا استحالة أن تماشى الكآبة الحقيقية والسأم مع الأسلوب الجميل، معيدا النظر في صدقية صديقه الحميم⁽¹⁾. لاحظ كافكا، من بين كثيرين، في 'يومياته' مفارقة الكتابة عن الشقاء بكلمات السعادة. ولكن كان الموضوع قديما في ما يتعلق بالأسوب، فإننا نجد في يوميات إيتالو سويفو ملاحظة تسر يونسكو وتعتقد من حالة صديقنا سيوران: "عرفت شخصا يكتب براعة إلى حد لا يمكن أن نتصوره صادقا". فهل يمكن أن نسحبها على

سيوران ونشك في تأكيده وترديده في مناسبات كثيرة أنه لم يكن "إلا سكريتيرا لأحاسيسه وأنه لم يبدع شيئا". ألم يكن العفريت ممزقا إذن، كما كان يدعي في كتاب 'التمزق'؟ هل كانت حالاته الدرامية غير حقيقية، مجرد اختلاقات مكتوبة ومصاغة جيدا؟ وهل كل ما كتبه كان مجرد كلمات.. كلمات.. كما تقول الأغنية؟ أكان حقا مدعي قرف ومُفبرك أحزان على الورق؟ بعد مضي خمس سنوات على رحيل سيوران، يحاول المفكر والروائي الفرنسي باسكال بروكتر تحقيق ضربة قاضية: "سيوران الذي تغنى بالانتحار كتابا تلو آخر، انتهى ببلاهة، مات بالشيخوخة. ومغزى ذلك أنه ليس من السهولة دائما جعل الأفعال في تناسق مع الأفكار"⁽¹⁾. ويتبع فيليب تيفرو نفس اتجاه هذا الريح المرتاب، فحسبه "لا يمكن لعدم محبط أن يكتب بنفس هذه الموهبة وهذا الأمل طوال نصف قرن"⁽²⁾. "لست عدميا: اللاشيء هو برنامج أيضا"، كان يجب أن يردد ذلك "المحبط الموهوب". "أمام تفاهة أي رد فعل حيال زلزال الولادة، لا نملك سوى رسم ابتسامة باهتة". ولكنه لم يكتب بتلك الإبتسامة الصفراء أمام عار الكينونة، كما كان يقول، بل وقف طويلا يتأمل مصيبة مجيئه إلى الدنيا. هل هي حيلة أخرى من أجل البقاء، كما زعم فيانو سابقا؟ هل هو عشق للمسائل المستعصية؟ كيف يمكن لإنسان المحافظة على حيوية عقل كهذه إذا كان منخورا من الداخل وملغوما بمأساوية؟ ما سر تلك الكتابة المفعمة بالحياة؟ هل نصدقه حينما يكتب أنه يتذكر جيدا وهو طفل صغير تلك

Pascal Bruckner, L'euphorie perpétuelle, essai sur le devoir de (1)
bonheur, Grasset, 2000, p. 247

Philippe Tifferau, Cioran, La dissection du gouffre éd. Henri (2)
Veyrier, Paris 1999, p. 155

اللحظة التي اكتشف فيها "الإحساس بالفراغ"، وذلك الإنطباع بأنه "قذف خارج الزمن"، وأنه لم يكفّ أبداً عن "مكابدة هذا الخواء" الذي أصبحت معاشته شبه يومية؟ ألا نعثر في شخص سيوران على إنسان القرن العشرين ذلك الذي قُدم بطلاً على ركح المسرح وحلّل في الرواية وشُرح في المصنف الفلسفي؟ ذلك الكائن الغريب عن الآخرين وعن ذاته، المرمي في ضاحية المطلق حيث لا يقدر إلا على التيه. أليس هو ذلك البطل الذي تخيله كافكا، كامو، يونسكو، بيكت وآخرون والذي لم يستطيعوا أن يكونوه في حياتهم الواقعية؟

ظلت الفلسفة عند سيوران نشاطاً فكرياً شديداً الصلة بالحياة. لا تنفصل بتاتا عن طريقة عيشه. "ماذا تفعل من الصباح إلى المساء؟ أتحمّل عبء ذاتي"، يجيب⁽¹⁾. ليس من المبالغة القول أن الفلسفة أعادت معه اكتشاف هويتها الأصلية إذ هو الفيلسوف الوحيد بالمعنى اليوناني الصارم للكلمة، ذلك الغائب منذ زمن طويل. لكن إذا كان يعرف في سن العشرين ما يعرفه في الستين من عمره، كما كان يحلو له أن يردد دائماً، ما جدوى إذن وما دلالة تلك المراجعة الطويلة المدى التي جاءت في أكثر من خمسة عشر كتاباً، خمسة وثلاثون كراساً مخطوطاً، مراسلة غزيرة، وأكثر من مئة مقابلة منشورة؟ فحسب دام أكثر من أربعين عاماً وصفه هو نفسه بالعمل "غير الضروري" و"الفائض"⁽²⁾. ولكن من حسن حظ قرائه كان "التفتيش" مقدماً في أجمل حلة ومصاعاً في أسلوب من أكثر الأساليب التي عرفت لها اللغة الفرنسية أناقة. أما ما كتبه بلغة أمه فيرى فيه مواطنوه أنه كان في لغة غنائية راقية ومجنونة. يبدو لي

(1) Œuvres p. 1292

(2) I. E. N., p. 1274

أن أنيقة الكلمة الخارقة للعادة، لا سيما حينما يكون صاحبها دخيلا، هي الشجرة التي غطت الغابة، أقصد أن الأسلوب قد غطى فكر سيوران وفلسفته وقد ساهم في تميمشه فلسفيا لمدة طويلة جدا إذ طرد من مملكة سقراط وافلاطون في بلاد الفرنسيين. لم يعترف هو أيضا بتلك الفلسفة الجامعية. لا تحارب في رأيه لا غورونا ولا تفاهتنا ولا إعجابنا بأنفسنا مثلما كان يريد لها مونتاني أن تكون. كما أنها لا تعترف بأمانة بحيرتها، ترددها، ضعفها وجهلها. دون عناء، يلاحظ قاريء الكتابات التي قدمته إلى الجمهور العريض في بداية مشواره الأدبي في فرنسا أن "المقدمين والنقاد"، لم يروا في عمل المغترب الروماني الأدبي والفلسفي سوى مظهره الخارجي، قشرته. لكن هل نرى شيئا آخر لدى الأجنبي غير ذلك؟

في 1950، بعد مرور عام على ظهور كتابه الأول في اللغة الفرنسية، يكتب الكاتب الفرنسي كلود موريك محتفلا: "ها هي ذي نيرة ولغة معلم بارع" .. ويعيد الكرة بعد ست سنوات، مدققا إعجابه: "هو روماني مغترب يعد اليوم من أحسن الكتاب الفرنسيين... تستطيع قلة من الكتاب الفرنسيين فقط، يضيف موريك، إتقان لغتنا يمثل هذه المعرفة"⁽¹⁾. "إنه المعلم السيد دائما"، حسب أندري تيراف، بل هو "صاحب ألمع أسلوب لدينا" يكتب آلان بوسكي⁽²⁾. أما الفيلسوف غابريال مارسال فيكتب بكل بساطة: "أنا معجب بأسلوب سيوران"⁽³⁾. كتب موريك نادو أول مقالة عن الفيلسوف سنة صدور

Preuves, n°70: «Cioran et la tentation du néant» (1)

Etudes, Un cynique fervent, 2 déc. 1962 (2)

Etudes, Un allié à contre - courant, 28 juin 1969 (3)

"موجز العفن"، (1949) وجاءت مرحة: "ها هو قد جاء من كنا ننتظره، رسول زمن المحتشدات والانتحارات الجماعية. ها هو ذا من عبد الطريق لجيئه كل فلاسفة العدم والعبث، لقد وصل حامل الأخبار المشؤومة"⁽¹⁾. وفي سنة 2006، لم ير بيار أسولين في سيوران غير "أستاذ تشاؤم يعج نكتا"⁽²⁾. لكن أغرب ما قرأت في الموضوع هو تأخر اكتشاف الفيلسوف الفرنسي الشهير مارسال كونش لسيوران: "لم أسمع عنه شيئا قبل سنة 2006"⁽³⁾، يقول!

أجمع الناس في فرنسا على أصالة أسلوبه وإيجازه البليغ وكثيرا ما قورن بفولتير ومفكري القرن الثامن عشر المعروفين كأخلاقيين، وهو ما ساهم بقدر كبير في إنزال فلسفته أو محتوى فكره إلى درجة ثانوية. وربما نحن أمام ظاهرة أدبية غير مسبوقه تمثلت في طغيان شبه كلي للشكل على المضمون. فكأن أسلوب سيوران غاية في حد ذاته، يمكن أن يكون مستقلا تمام الإستقلال عن الفكر الذي يحمله! لم يُنصف عاشق التجوال في حديقة لوكسمبورغ، ركزت الكتب القليلة التي خصصت له ابتداء من الثمانينات في معظمها على أصالة طريقته في الكتابة، وتشاؤمه ودعابته السوداء. لم تعره الدراسات الجامعية في فرنسا اهتماما إلا مع بداية التسعينات. وهو ما جعل فلسفة سيوران فلسفة بدون مأوى قار. فليس لكتبه رف معين في المكتبات، فهي هنا مع كتب الأدب وهناك مع كتب الدين، وقد وضع 'موجز العفن' مرة مع كتب الكيمياء! لئن كان الحال هكذا في البلاد التي اختار لغتها، فإنه يحظى باهتمام كبير في بلدان أخرى كثيرة حيث ترجمت أعماله إلى

Combat (1)

Le Monde 2, du 07 janvier 2007 (2)

Philosophie magazine n°1, avril-mai 2006 (3)

معظم اللغات ودخلت أعماله إلى برامج معظم الجامعات العالمية. نوقشت حول فلسفته أطروحات كثيرة في إسبانيا وألمانيا وإيطاليا.. أما في فرنسا فلم يكن موضوعا للبحث الجامعي إلا في عدد محدود من الأطروحات.

أنا فيلسوف عواء!

"الكتب الوحيدة التي تستحق أن تكتب
هي تلك التي يؤلفها أصحابها دون أن
يفكروا في القراء ودون أن يفكروا في
أي جدوى أو مردود"

سيوران

اهمه أعداء كتابته بالتحايل وتصنع القرف وتوابعه. ضجر غير حقيقي، لمح بعض الأصدقاء. حقدٌ مكتوب، تنصل وتنكرٌ للوطن، يحتج الرومانيون، مواطنوه السابقون⁽¹⁾. لم ير أغلب المعلقين في أدبه سوى مجرد عمل أسلوبى، عبث بالكلمات... "إذا كنت تؤمن بكل ما تقرأ، فمن الأحسن لك أن تكف عن القراءة". يمكن أن ينطبق هذا المثل الصيني على ما قيل وما يقال عن سيوران. على الرغم من كثرة الكتابات في هذا الإتجاه أو ذاك، يبقى ما خلفه عملا أدبيا - فلسفيا من طراز جديد، يحمل فكرا أصيلا. ولئن عبّر عن هذا الفكر بأسلوب فريد وجذاب للغاية، يبقى هذا الأسلوب الذي كثيرا ما نال إعجاب بعض النقاد وأجّح غيرة بعضهم وسُخط البعض الآخر جزءا لا يتجزأ من كل.

A. Laignel-Lavastine, Cioran, Eliade, Ionesco. L'oubli du fascisme (1)
P. U. F., 2002

ألا يفكر كل إنسان بلغته الخاصة وبالأسلوب المناسب لطبعه؟ يُخيل للقارئ لأول وهلة أنه أمام استعراض لعضلات بلاغية: مجاز مستحيل من هنا وتشبيه غريب من هناك... يدفع سيوران اللغة العادية من كل الجوانب لتعبر عن أقصى معنى ممكن. مثله مثل نيتشه الذي يستعمل الكلمات الصغيرة المهانة والمعقوفة، على حد قوله، بل يستحسن التقاط من تحت موائد العشاء ما يسقط من كلمات. لا يمكن النظر إلى تجربة "أيوب القرن العشرين الافتراضي" على أنها مجرد تمارين في الأسلوب، سيناريوهات في السأم والإستياء والضجر أو تحايلات على سيرة في الشباب كانت مشبوهة. ولكن لا نستطيع في المقابل نفي أو تأكيد ما جاء حوله من أحكام بشكل قطعي إذ أن كل حكم نثائي في شأنه يعد جراحة مُغامرة، ففكره لا يستجيب بيسر للتحليلات والتفسيرات الكلاسيكية. يجد القارئ نفسه في حضرة تأمل تطبعه سمة شخصية بارزة، ويُطعمه فيض من الأفكار البوذية والصوفية والغنوصية والفلسفية... متأتية من قراءات متناقضة شكلت في النهاية كوكتيلا متفجرا، يُخلق صعوبة إضافية في تحديد هوية فلسفية ثابتة لسيوران. على رغم خلائها من المصطلحات الفلسفية التقنية، تشكل "كتابة" ابن القس في النهاية، تصورا أصيلا للعالم وتطرح بقساوة مشكل الإنسان الوحيد، حسبه، ألا وهو وجود الإنسان ذاته، جدوى هذا الوجود في العالم، وعبثية الوضع الإنساني وما يترتب من نتائج جراء ذلك العبث.

تُصعب طبيعة نتاجه الأدبي مهمة القارئ المولع بالتركيبات النظرية، يأتي هذا النتاج في معظمه على شكل مصنفات شذرية، مقطعية تدور حول عدد من المسائل الرئيسية، بل الإستحواذية، وذلك في تأملات متقطعة تأتي مرة على صيغة أفكار مبعثرة وتارة كملاحظات عابرة مصاغة في جمل مقطعية. يبدو أحيانا أن هذه الخواطر السريعة

المكثفة آتية من بعيد، أبعد من الكتابة ذاتها، فتتحلى كـ "ومضات وعي"، ما عليه سوى نقلها على الورق كما هي، على حد تعبير فابريس زيمر في كتابه 'سيوران، رحلة في أعماق الأنا'⁽¹⁾. إشارات شعرية ولكنها لا تهبط عليه كالوحي من السماء الأرفع، بل يسبقها عمل توليدي تنبثق منه صيغتها النهائية. تصدر الحكم القصيرة السيورانية في أغلب الأحيان عن نوع من الحقيقة الشعرية مرتبطة أشد الارتباط بالإحساس، كما هو الحال لدى نيتشه. لا يتعد سيوران كثيرا عن حقيقة أمره حينما يكتب مؤكدا في كتاب 'التمزق' أن: "كل الأمور التي تطرقت لها، كل ما قلته على مر السنين، يبقى وثيق الصلة بما عشت. لم أبدع شيئا"⁽²⁾.

هل نعدم الحديث عن وجود نسق سيوراني ما؟ نحن فعلا أمام أفكار متناقضة. يمكن أن نقرأ في نفس المصنف بل في نفس الفصل شذرتين متعارضتين، ولكننا سرعان ما نعثر في نفس الكتاب أو الفصل أو في موضع آخر على شذرة ثالثة لا أقول بأنها توفق بينهما وإنما تخفف من حدة تعارضهما. على عكس ما يعتقد الكثير من المعلقين، لا يمكن اعتبار الكتابة المقطعة الشذرية، على الأقل في حالة سيوران، تشظ للفكر. إنها أكثر ملاءمة للذات الكاتبة الحرة، المنتقة من كل مرجعية، المتحملة لمسؤولية تناقضاتها، والتي لا تستطيع التعبير عن كنهها بأمانة إلا عن طريق الكلمة المقطعية، الوحيدة التي تجيز قول الشيء ونقيضه دون أدنى خوف من السقوط في التناقض. وهو شعور كثيرا ما يستبد بأهل الكتابة المتواصلة، فيصبون اهتمامهم على تماسك النص المنطقي

Magazine littéraire, n°360, déc. 1997 (1)

Ecartèlement, Œuvres, p. 1486 (2)

أكثر مما يبحثون عن الصدق في القول. تخضع الأعمال ذات النفس الطويل لمتطلبات البناء وهاجس التابع وهذا الإفراط في التماسك يجعلها بعيدة عن الصدق.

الأفكار الحقيقية تساؤلات، وما التفكير إلا تساؤلات متقطعة، يقول موريس بلانشو. في النص المقطعي، غير المتواصل، لا يلح الكاتب ولا يبرهن وإنما يؤكد. يقول الروماني المتفرنس مفسرا تلاؤم هذه الصيغة السريعة مع ذهنيته الإنكارية: "لا أبرهن أبدا، أطلق أحكاما، أصدر مراسيم، ما أقوله يكون دائما نتيجة لشيء ما، لسيرورة داخلية." "أكتب الشذرة ليتسنى لي التناقض مع نفسي. التناقض جزء لا يتجزأ من طبيعتي، وطبيعة كل الناس على كل حال". إن كانت الشذرة السيورانية لا تهدف إلى أي استنتاج أو إقناع، فإنها تطلق من حين لآخر وميضاً من الصفاء يبدو فيه العالم فاقدا لكل معنى. بقي سيوران وفيما لنزعته القلقة الممزقة، محافظاً على نبرته المعتادة وطابعه المميز إلى آخر قطرة من حيره. كانت كتبه تعبيراً طويل النفس عن تجربة "فشل معلن"، يمكن أن تُقرأ كرسالة لطيفة مطولة حول طريق الإنسان المسدود ولاجدوى مسعاه في هذا الوجود. سار على درب الأخلاقيين الفرنسيين في القرن الثامن عشر، فهو يُدين، يحكم على الأشياء ويعيد النظر في كل أمر على منوالهم. لم تكن عينه الساخرة والقاسية ترى سوى ما كان سلبياً في الإنسان والمجتمع، فصب جام غضبه عليهما مستعملاً الذعّ العنوت.

يقول الكاتب الفرنسي الشهير مونتاني أنه كان مادة لأدبه. يمكن لسيوران أن يقول نفس الشيء وزيادة ويضيف مع غوتة: "كل فكري كسان عبارة عن اعترافات مستمرة"، ولكنها كانت ذات نكهة فريدة، عنيفة ومتمردة. كانت تأملاً حول الأسوأ المظلم، انتفاضة ميتافيزيقية

ناجحة عن استياء وجودي عميق من الحياة والموت، ومن وضع الإنسان كنوع والإنسان المعاصر على الأخص. "اعترافات ولعنات"، تراكت وكونت في المحصلة النهائية تصورا خاصا للأمور، جاء في كتب مميزة لا علاقة لها بما عهدناه معروضا على رفوف المكتبات. كتابة متشظية تحمل تأملا حول نزوات صاحبها المتقلبة التي لا تهدأ على حال. يتحدث سيوران عن هذه التقلبات تحت غطاء الحديث عن نيتشه، لنقرأ كيف يرافع عن زميله مرافعا في ذات الحال عن قضيته: "لا شيء أكثر إغضابا من تلك المؤلفات التي تُنسق فيها الأفكار المبعثرة لعقل حي لم يكن هدفه إنشاء منظومة على الإطلاق. ما نفع إعطاء نوع من الترتيب الشكلي لأفكار نيتشه بدعوى أنها تدور حول نفس الموضوع؟ نيتشه مجموعة من المواقف، فالبحث عن وحدة ما أو أي نسق قصدي لديه هوانتقاص من قيمته. كان أسير مزاجه المتقلب. يضل البحاث سواء السبيل حينما يريدون إيجاد ثوابت ترفضها فلسفته التي لم تكن سوى تأملات في أهوائه المتقلبة". هكذا يحتج سيوران في 'إغواء الوجود'⁽¹⁾. لم يكن يتحدث في كثير من "البورتريهات" التي خصصها لغيره من المفكرين سوى عن نفسه بطريقة ملتوية. كثيرا ما كتب سيرته الفلسفية الذاتية وهو يتطرق لسيرة المفكرين الآخرين. جاءت 'تمارين الإعجاب'، الكتاب الوحيد الذي كتبه عن زملائه من الكتاب والفلاسفة عبارة عن "سيرة ذاتية"، لا تفصح عن نفسها، سير ذاتية مُحَوَّلة. ها هو يأتي على مقاسه تماما ذلك البورتري الذي يحبك مثلا لبول فاليري: "لم يكن مُعلقا ذاتيا على أدبه فحسب وإنما كانت كل مؤلفاته سيرة ذاتية مُفْتَعَة تقريبا. كانت استبطانا عالما، يوميات فكرية، ترقيات لتجاربه، مهما

كانت تلك التحارب إلى درجة الحدث الفكري⁽¹⁾. ألا يصف نفسه أيضا حينما يجي في صديقه ميشو "حدة الكينونة" ولا سيما ذلك "المتصوف غير المتحقق". أول أسلوب كتابته تأويلات شتى وكثيرا ما زاد الطين بلة تعليقاته الذاتية عما كتب. لقد استعذب كثيرا الحديث عن رؤيته للحياة. أجرى أكثر من المائة مقابلة مع الصحافة العالمية، باستثناء الفرنسية منها التي امتنع من الظهور على صفحاتها وشاشاتها خوفا من أن يتعرف عليه الناس في حديقة اللوكسمبورغ، مكانه المفضل في باريس. لقد اختار أن يبقى بعيدا عن الصخب والأضواء في زمن أصبح فيه "العيش في الخفاء" فشلا في نظر أغلبية معاصريه. تحدث عن نظرته للوجود مطولا وبالتدقيق في كثير من المقابلات التي أجراها مع أصدقائه المثقفين من مختلف اللغات، ولكن هل نعتد على كل ما وجد من صيغ موفقة في التعريف بنفسه؟ احتلت تعليقاته على كتبه ورؤيته مساحة كبيرة في مسيرته الفكرية إلى حد أصبحت فيه جزء لا يتجزأ من عمله الأدبي.

تفرض طريقته في الكتابة على قارئه شيئا من الجهد ليتمكن من فك رمز ومعنى عباراته السريعة المكتنفة. تتطلب قراءته زادا قرائيا معينا واطلاعا معقولا. كثيرا ما تتعقد مهمة قارئه الهاوي أمام إحالاته المتكررة لحوادث التاريخ القرية والبعيدة في أكثر تفاصيلها دقة أحيانا واستدعاءاته المستمرة لأساطين تاريخ الفكر الإنساني في تجلياته المتعددة والمتناقضة: الديانات، الفلسفة، التصوف، الرواية، الشعر.. في جملة واحدة، مثلا، يُعرّف شكسبير فيغدو أشهر من مشيت به من الإنجليز قدم مجرد "موعد بين وردة وفأس". يُعرّف نفسه مستعملا خيال "الشيخ

Exercices d'admiration, Œuvres. p. 1560 (1)

الزوير"⁽¹⁾ حينما يرى في ماكبث "الأخ والصنو". عن استراغوفين بطل دويستوفسكي، يقول أنه شديد الإعجاب به بسبب عمقه الرومانسي ومعاناته القاسية من الملل. لو كان مؤمنا لكان مانويا، يعترف في 'كراساته' التي نشرت بعد موته⁽²⁾. يستخدم الميثولوجيا حتى عندما يروي يومياته: "أستيقظ كالشيطان أحيانا وأهني يومي جباناً، والعكس في بعض الأحيان"⁽³⁾. "من هو الحكيم؟" يتساءل وتأتي الإجابة واضحة سريعة: "شيطان أبله". كمؤرخ للفلسفة يكتب بظرافة: "كان باسكال وعلى الخصوص نيتشه، مُحققان في شؤون الأبدية". أما في تعليقه المتشائم عن الطبيعة البشرية، فلا يرى في كل مولود جديد سوى "ريشارد ثالث مقبل". كثيرا ما توارى وراء الأحداث التاريخية للتعبير عن بعض الآراء والمواقف: "أميل إلى الممالك المالكة، والإمبراطوريات المنهارة... أميل إلى الذين تعبوا من أنفسهم ومن العالم، أولئك الذين يؤمنون بالأمر المحتوم. أتعاطف مع الممزقين والمعتوهين، مع عائلات رومانوف وهابسبورغ ومع كل الذين ينتظرون جلادهم، أحمل ودا إلى المهديين والمتأكلين في كل مكان". تكمن أصالته في بعده عن التخمين النظري والتحليق في أجواء الفكر المجرد.

جاءت فلسفته من حياته اليومية عموماً. استلهم مادة تفكيره في الأسئلة الكبرى من الأشياء الصغيرة التي يصادفها كل يوم في الحياة العادية. لا تكاد تنفصل فكرة من أفكاره عن نادرة من النوادير أو حكاية من الحكايا التي عاشها. نعر على سيوران الحقيقي في 'الكراسات'، كتابه المطبوع بعد وفاته، لذلك أعتبره أهم كتبه لأننا نجد

(1) شكسبير

(2) Les Cahiers 1957-1947, Gallimard, 1997

(3) نفس المصدر. ص. 998.

فيه الوجه الأكثر صدقا وتعبيرا عن صاحبه وهي أوراق أرجح أنه لم يكن ينوي نشرها لما فيها من صراحة ومباشرة وعنق تجرّيجي. نكتشف في "الكراسات" تلك الورشة التي تولد فيها الأفكار انطلاقا من الفرص التي تمنحها الحياة الواقعية لسيوران. نرى كيف تنفجر رؤيته من ملاحظة أو نادرة ما. ويكون ذلك متوقفا دائما على إحساس اللحظة التي يعيشها. "في يوم من الأيام كنت قاصدا متحف اللوفر، يحكي لنا سيوران، كان لزاما علي أن أعبر نهر السين. كان عدد السيارات مذهلا كما هو الحال في باريس دائما. في لحظة عدم انتباه لإشارات المرور، وجدت نفسي فجأة محاصرا في وسط الطريق تحيطني السيارات من كل جانب... حينئذ جاءني شعور كالإشراق: مرحبا أيها الإفلاس والمهلاك! كيف يمكن أن تصل الأمور إلى هذا الحد؟ لماذا وصل الإنسان إلى هذه الفظاعة؟ كفى. لا داعي للأدلة والبراهين... قضي الأمر وانتهى كل شيء". في تطرقه لـ "الزمن" مثلا، لا يقوم بخطبة فلسفية عصماء حول الموضوع، وإنما يصف ما يحدث له شخصيا: "أمكث في الفراش أكثر من نصف اليوم. ليس لي سيلا للإندماج في الزمن". وها هو يصيغ لنا من اللغة المتداولة أجمل الصيغ: "كنت، أنا كائن، سأكون. ليس تلك مسألة وجود، وإنما هي مسألة نحو، لا أكثر ولا أقل". لا تكون زيارته لطبيب الأسنان عادية دائما فكثيرا ما يستنتج منها درسا فلسفيا: "في الوقت الذي كان فيه الطبيب يهشم فكّي، كان يدور في خلدي أن الزمن هو الموضوع الوحيد الذي يجب أن أتأمل فيه، فبسيه أقيع الآن على هذا الكرسي المشؤوم، وبسيه يتهشم كل شيء، بما فيه ما تبقى لي من أضراس"⁽¹⁾. ويستمر ساخرا من الأمر

قائلا كلمة تعد من أجل ما قيل في اللغة الفرنسية: "أفقد أسناني. ها أنا ذا أموت بالتجزئة". أما في 'موجز العفن' أو 'رسالة في التحلل'، فيكتب أن "الأمس واليوم وغدا: مقولات مخصصة للخدم"⁽¹⁾. يجربنا في الكتاب السابق ذاته أن "جوابا سريعا من لير أو خطبة من هاملت تعلمنا أكثر من ألف تحليل ابيكولوجي" في معرفة خبايا وصراعات الإنسان الداخلية. "أنا شبيه بالدمية المتحركة المكسورة التي سقطت عيناها إلى الداخل، هذه العبارة التي نطق بها مريض عقلي، يقول، هي أعمق من كل الأعمال التي وُضعت في الإستقراء الباطني".

حينما يريد التحدث عن البوذية، يربطها بحياة كل إنسان: "تكفي زيارة لمستشفى، وفي غضون دقائق معدودات، نصبح بوذيين إذا لم نكن كذلك، ويفترض الفيلسوف أن نعود إلى سالف عهدنا إن كنا بوذيين وهجرنا البوذية يوما"⁽²⁾. من هو بوذا الشوارع؟ يسأل في كتابه 'عشق الأفكار' وتأتي الإجابة ممتعة: "هو الوعي بالعدم مصحوبا بحب الحياة"⁽³⁾. أماتني ضحكا حينما قرأته يقول ذات عام أنه يوم علم بأنه فان وأنه سيلقى حتفه لا محالة، ترك مقاعد الدراسة حالا ليعلم كل العالم بذلك. دون أن أسقط في تقييه من فلسفة "النيوآج" أو فكر العصر الجديد المتمركزة حول الخلاص الذاتي، السعادة فورا، الفرد.. أقول أن الفلسفة في نظره هي طريقة حياة وسبيل خلاص فردي وليست ابتداع مقولات وتكوين تصورات كما كان يرى الشيخ جيل دولوز. ليس للمصطلح أية أهمية، وحدها الحياة جديرة بالإهتمام. لا داعي للرقص المصطلحي

Œuvres, p. 658 (1)

Aveux et anathèmes, Œuvres, p. 1651 (2)

Le crépuscule des pensées, Œuvres, p. 391 (3)

والثرثرة المتكلفة، فحتى الفيلسوف كانط ذاته، رائد اللغة الفلسفية الإصطلاحية يتفق نظريا مع سيوران في هذا الأمر، حينما يكتب في إحدى رسائله: "ينبغي عليّ كل كتاب في الفلسفة أن يكون قابلا للتداول العام كيلا يكون إخفاءً محتملا لتفاهات تحت غطاء الحذقة"⁽¹⁾. ولكن متى كان الفعل قولاً؟ هل يمكن أن ننقل فكر كانط إلى اللغة البشرية العادية؟ في 'اعترافاته ولعناته' يأخذ سيوران على صاحب 'نقد ملكة الحكم' كونه "انتظر حتى بلغ من العمر عتيا ليدرك جوانب الوجود القائمة. هناك من هم أكثر حظا منه، توصلوا إلى ما وصل إليه في شيخوخته، قبل أن يبدأوا التفلسف قط"⁽²⁾.

لسن أخذ صديقنا سيوران من الحياة إجازة دائمة كي يتجنب السقوط في عبودية الوجود، كما يقول، وليعيش دون وظائف اجتماعية مُبلّهة، ولئن كان يؤمن إيمانا فلسفيا راسخا أنه من الطبيعي أن نجد أن لا شيء مجد في الوجود، فإنه بقي يصغي جيدا إلى الحياة وإلى نفسه على الدوام، ويعبر عن ذلك أجمل تعبير. وربما هو ما يجعلني أقول دون أدنى خوف من الزلل أن الفلسفة انتقلت معه من مرحلة المقسولات إلى مرحلة الإنفعالات. ألا تنبني كل فلسفة حقيقية على "الأنا"؟ لا يكتب كتابا أو يلقي خطابا ليعبر عن تحفظه حول التحليل النفسي الفرويدي مثلا وإنما يقص علينا ما كان يحدث له في طفولته الصغرى: "إذا اتسم موقفي من فرويد بالريبة دائما فأبسي هو المسؤول الأول عن ذلك: كان يقص أحلامه على أمي. وبهذا كان يعكس صفو كل صباحاتي"⁽³⁾.

(1) Kant, Lettre à Gave, le 07 août 1783

(2) Œuvres, p. 1647

(3) نفس المصدر. ص. 1649.

لا فائدة ترجى من كتاب لا يشوش كل شيء ولا يشكك بكل أمر. كان السيد سيوران من الشكاك الراديكاليين، لكنه لم يكن يظهر ذلك في صخب اصطلاحي مقعر: "الآراء نعم. أما القناعات فلا، وتلك ركيزة كل عزة فكرية"، و"يعرف المفكر الغشاش من حصيلة الأفكار الدقيقة التي يدافع عنها". ويفسر الأمر قائلاً في موضع آخر: "وحده يملك قناعات من لم يتعمق في شيء". تلك طريقته في الحديث عن شكه الشامل. أما حينما يتعرض للقلق الوجودي الذي يضرب بني نوعه وحينما يطرح مسألة حاجاتهم الروحية، فإنه يستعمل كلمات رجل الشارع: "يغدو الإنسان المتعب من نفسه سائراً ومتكلماً في النوم، يرنو إلى الضياع في صحارى الله"⁽¹⁾. يصف التمزق البشري في مقطع شعري جميل في 'دموع وقديسون': "فيما تنتحب الذاكرة، يقول، تئن الجنة في قاع الوعي. وهكذا نخلق معنى ميتافيزيقي حالم للدموع ونتوهم بأن الحياة مجرد تعاقب للحسرة والندم". ينظر إلى الكتابة على أنها الزمن وقد تحول إلى انفعالية، وهو ما يذكر بجيرار دو نيرفال القائل لطبيبه أنها (الكتابة) ذلك المرض الذي يجعل المرء ينظر إلى الأشياء كما هي. حاولت اقتطاف باقة من الشذرات للحديث عن طريقة سيوران في التفكير ولكي أشير إلى الصعوبة التي تعترض من يحاول نمذجة فكره. ترجمت ما رأيته دالاً على أسلوبه المجازي والبلاغي. لتأمل بعض كلمات لسيوران في قمة لياقته الفلسفية والشعرية: "شعلة تعبر الدم. تقفز إلى الضفة الأخرى، متفادية الموت"، "الحياة نقصان أبدية ابتداءً من الموت"، "التفردن أزمة السرمدية"... كيف يمكن تفسير وتأويل كلام يعج بالرؤى الشعرية؟ من يغامر في تفسير ما لا يفسر وما

Le crépuscule des pensées, Œuvres, p. 448 (1)

لا يفهم؟ أتذكر هنا بكثير من الحنين رد أستاذي في جامعة الجزائر على إلحاح زميل وصديق فيه كثير من الخبث الجميل طالبا شرح فكرة الفيلسوف هيغل حول تجسد العقل في التاريخ. بعد محاولات متكررة لشرح فكرة هيغل وأمام تمادي الصديق في عدم الفهم، قال الأستاذ طيب الذكر في شبه غضب: "أتريد يا ابني أن أشرح لك أمرا أنا شخصا لا أفقه منه شيئا!"

تصدق كلمة الأستاذ أيما صدق في حالة سيوران إذ كيف يمكن ادعاء فهم أفكار مغلقة في أثواب الشعراأنيقة؟ من يغامر في فن تفسير ما لا يفهم؟ ألم يكتب صاحبنا في آخر صفحات كتابه الأخير: "يفنى كل ما هو قابل للتصنيف ولا يبقى إلا ما كان حمال أوجه". وفي 'تمارين الإعجاب'، يذهب إلى القول أن "مأساة الكاتب الحقيقية هي حينما يتم فهمه"⁽¹⁾. أما القاعدة الذهبية لديه فهي "ترك صورة غير مكتملة عن الذات". يجد القاريء نفسه وجها لوجه أمام أفكار سريعة مكثفة كأنها اللمع أو أقوال مأثورة أو حكم ويخال له أن كاتبها كالمحتقن بالنثر يطلب من الشعر نجدة.

مساويء أن يكون الإنسان فيلسوفا! لم يعيش سيوران من الفلسفة بل من أجل الفلسفة. "أنت تأخذ أجرا مقابل أن تكون لا شخصا، تقبض مقابل الحياد"، هكذا خاطب سيوران ذات يوم فيلسوف فرنسي كان متربعا على كرسي الأستاذية في إحدى الجامعات الفرنسية الشهيرة. ينبغي أن تكون الفلسفة قضية معاشة ذاتيا، أن تكون تجربة شخصية أو لا تكون! أهم شيء في نظر سيوران هو العلاقة المباشرة مع الحياة، الإحتكاك بواقع الناس العاديين. تتعايش في كتبه

Valery face à ses idoles, Œuvres, p. 1560 (1)

وتتداخل أشياء كثيرة: استشهادات دامغة، تعاليق حول الأحداث التاريخية وكثير من البوح بأسرار حياته الخاصة...

يكمن عيب الفلسفة وبؤسها في زمننا في انفصال متعاطيها عنها. أصبح المشتغل بما مستقلا عن موضوع دراسته كباقي القوم، مثله مثل الجراح والصيدلي. أصبحت الفلسفة سهلة، لا تستدعي أية مغامرة شخصية ولا ينجر عنها أية تبعات. ألم يعرفها سبونفيل، أحد أشهر فلاسفة فرنسا اليوم، على أنها "عملية استدلالية، موضوعها الحياة ووسيلتها العقل وهدفها السعادة"؟ لو قرأ سيوران هذا التعريف لمأت ضحكا. فلا الحياة موضوع الفلسفة ولا العقل وسيلتها ولا السعادة مبتغاها. تثرثر الفلسفة حسبه عبر مصطلحاتها قبل أن تتناول المسائل، متوهمة أنها تقول شيئا حول الواقع، بيد أن تكاثر الكلمات التقنية ليس من الضرورة في شيء. كان هيدغر عبقرية لغوية لا أكثر ولا أقل في نظر سيوران، تحولت الفلسفة معه إلى جعجعة بلا طحين. استعمل لغة معقدة جدا لقول أشياء بسيطة للغاية. فلم ييهر سوى بخطابه اللغوي. لو ترجمنا نصوصه الفلسفية إلى اللغة العادية لبدت لنا فارغة من أي معنى، يضيف من يؤكد أن المسائل الحقيقية تفلت من قبضة الفلاسفة. لم يسنحت نيتشه مصطلحات ومع ذلك لم ينقص هذا الأمر من أهمية وعمق ما خلفه من فكر. "إن ابتداع الكلمات الجديدة هو الدليل الدامغ على عقم الأفكار"، تبدو ملاحظة مادام دو ستال، أكثر صدقا اليوم مما كانت عليه في بداية القرن التاسع عشر، يقول سيوران⁽¹⁾. بعد هذه المحاكمة للفلسفة، أصدر حكمه النهائي حول توجهاتها الحالية وعلى الأخص نزعتها اللفظوية. أخطر ما يهدد الفلسفة الجامعية هو

Aveux et anathèmes, Œuvres, p. 1646 (1)

غرقها في طوفان المصطلحات التقنية، وهو ما يزيد في بعدها عن حقيقة الأشياء. هل يبالغ أفضل كاتب شذرات بعد نيتشه، حينما يقول: "ما جدوى معايشة افلاطون إذا كان أي ساكسوفون قادرا هو أيضا أن ينقلنا إلى عوالم أخرى؟" ألم يقص سقراط نفسه على أصدقائه حلما متكررا، يأمره فيه صوت قائلا: "اعزف موسيقى، فما الفلسفة إلا موسيقى سامية"⁽¹⁾. لا يمكن أن تكون مجرد تقنية عقلية، تفكير حول المفاهيم. "كان سارتر نابليون فكر صغير. عن طريق مفاهيمه اعتقد أنه كان يتحكم في مسيرة العالم ولكن لم يكن العالم يوليه أدنى اهتمام. لقد أشفقت دائما عليه لسبب واحد على الأقل هوذاك الفشل الذريع الذي منيت به أحلامه".

عاش سيوران بلا قضية نضالية ولكنني أتخيله مبتهجا بما قام به ثلاثة طلاب فلسفة، هؤلاء الذين حطموا نظام البصمات الذي يُراقب دخول التلاميذ إلى مطعم ثانويتهم. لقد هضمو ضد تشييء الإنسان، قالوا في المحكمة. فهل هناك من التعريفات أبلغ مما فعلوا. لا يمكن أن تكون الفلسفة شيئا آخر غير انتفاضة راديكالية ضد كل من يريد ممارسة سلطة ما علينا، ضد أن نكون مراقبين، مُفتشِين، مأمورين، كما تقول عبارة برودون الخالدة.

اضحكوا ولكن ابكوا في نفس الوقت... أيضا

"ينبغي أن نضحك قبل أن نكون سعداء،
خوفا من أن نموت دون أن نضحك"

جون دو لايبني

في المحصلة إن كان هناك تحصيلا ما حينما نلج متاهة سيوران،
أجد نفسي أمام رغبة ملحة في القول أن كل قراءة مكتوبة لأعمال
سيوران ما هي إلا تشكيلا لـ "سيوران ما". لا أزعج وجود عدة
"سيورانات"، أريد القول أن هناك سيوران واحد، يستعصي على
التصنيف. ليس من السهولة إدراج نظرتي للحياة وللعالم ضمن منظومة
من المنظومات الفكرية الرئيسية المعروضة في سوق الفلسفة. مع قراءة
كل شذرة من شذراته، يتهافت كل تصنيف وتهاوى كل فكرة مبتذلة
حواله، فكثيرا ما تكون الشذرة استجابة لظروف اللحظة المعاشة. إنه
يكتب للضرورة فليس الكتابة ترفا لتلبية متعة فكرية محضة بل هي رد
فعل حيوي خفف من ثقل الحياة ورتابة الزمن وسياط السهاد. "لو لم
أسود ورقا لكنت قتلت نفسي منذ زمان"، "الكتابة تحايل على الحياة"
و"مطفأة للغضب" و"كل كتاب هو انتحار مؤجل". هذا ما كان يجب
أن يردد دائما. كتب ليلعن الدنيا وليهجو نفسه كالحطيطية ويعترف في

النهاية أنه قد تحمل الحياة أحسن. لقد قذفت بالأشياء - المكتوبة - إلى الخارج، تَنَحَّمتُ، كان يقول.

يكاد باتريس بولون أن يقترب من تشخيص حالة سيوران حينما يكتب أنه يجب ذكر واستحضار كل ما كتبه سيوران تقريبا ليتسنى لنا تقديم نظرة عن تلك الرؤية المزعزعة التي تؤكد في آن معا على ضرورة الصفاء الذهني الكامل، الوهم المعتم، البحث الصوفي عن الحكمة، اللجوء البدائي إلى الغرائز، الوثبة الروحية، التعلق بالمادية، والريبة من كل تغيير⁽¹⁾. لئن تنبه باتريس بولون إلى صعوبة الإحاطة بفكر سيوران فإنه يبقى مثل أغلب دارسي فكر سيوران سجين تلك القراءات المفرطة في عقلانياتها، التي تبتغي وضع النصوص "في أزمة" وهو ما يسمى "نقدا" في اللغة الفلسفية عادة.

هل من الممكن صياغة نظرة متماسكة للكاوس⁽²⁾؟ للعلماء، للسلم، هل كان سيوران محتاجا أو مهتما بإقناع أحد؟ هو الذي كان متيقنا بأن العالم لا ينصاع أبدا لأحلام الفلاسفة! هل يحتاج من يضع تشخيصا إلى أن يكون متناسق الفكر متماسك المذهب؟ هل تماسك الأفكار الصارم ضرورة؟

لا يصيغ سيوران إشكاليات لفظية طويلة عريضة كما اعتاد أن يفعل متعاطو الفلسفة. يتساءل أحيانا، يؤكد في الغالب، يطلق أفكارا، تنبع من أعماقه حينما وتكون حينما آخر رد فعل سريع حول ما يشاهد ويلاحظ ويعايش في حياته اليومية وتكون في أغلب الأحيان تعليقا عما يقرأ أو يسمع هنا أو هناك. يسجل ما يدور بنفسه، يلاحظ ما يحيط

Magazine littéraire, décembre 1994 (1)

Le chaos (2)

به، يكفر، يغتاز، يسخط... ويعبر عن ذلك كله في جمل سريعة مقتضبة. تبدو شذرات سيوران الفكرية، لأول وهلة، كأنها اعترافات وملاحظات ومَحاضر، متباعدة ومنفصلة عن بعضها البعض، ولكن يجمع بين كل المواقف الجزئية الصغيرة خيط يجعلها تشكل في النهاية موقفا من الحياة، نظرة عن العالم، تشخيصا للوضع البشري.

من يقرأ ما كتب يجد ما تركه عبارة عن تشخيص لسقوط والمخطاط الإنسان عموما وإنسان الحضارة الصناعية على وجه الخصوص. كان الإنسان هو اهتمامه الفلسفي الأول والأخير. لم ينقطع عن مساءلة كل من له سلطة على بني آدم: الدولة، الله، التاريخ، التحليل النفسي، الطبيعة، التقنية.. كانت نظراته المتحررة للعالم تسجل قرب المهيار الأشياء كلها. يعتبر كتابه 'التاريخ واليوتوبيا' من أفصح أعماله نقدا للحدثة والحضارة الحالية إذ أنه قدم في كتبه الرومانية أو الفرنسية الأخرى تصورا ميتافيزيقيا للوجود. هنا في 'التاريخ واليوتوبيا' يبدو كأنه يحاول إيجاد أسس تاريخية ملموسة يوقف عليها رؤيته الفلسفية. نعثر في ثنايا كل أعماله على نقد وفير لأسس الحضارة الغربية وإن كان نقدا سريعا متفرقا هنا وهناك فإنه من أعمق ما كتب من ملاحظات حولها، ابتداءً من عقم الفلسفة في الغرب، مروراً بمحدودية العلوم الإنسانية وأزمة التمثيل البرلماني ووصولاً إلى أسلوب احتلال المكان، وفن العمارة.. نقرأ في كتابه 'في لا جدوى الثورات' أن الغرب "عفونة ذات رائحة طيبة، حيفة معطرة".

لا تعيد سهام سيوران النظر في تلك الصورة الموثلة لما يسمى "حضارة غربية" فحسب بل تعتبر مجتمعة أعنف نقد وجّه للحدثة في عصر الإيديولوجيات وهو أمر كثيرا ما أدى إلى إدراجه ظلما ضمن قائمة المفكرين الرجعيين. تكمن أهمية نقد سيوران للثقافة الغربية في

جذريته وفي تحرره من سطوة الإيديولوجيات و'الموضات' الفكرية التي اجتاحت القرن العشرين. لنقرأ ما كتبه سنة 1960 في عزّ البيات الشتوي الثقافي الذي كان يرقد فيه كثير من المفكرين: "بغية تجريد الله من كل مصداقية، ألّهت الماركسية التاريخ، فلم تفعل سوى جعله غريبا وبالتالي أكثر إلحاحا. نستطيع أن نقتل كل شيء في الإنسان، يقول، إلا حاجته للمطلق التي تبقى حية بعد تدمر المعابد وحتى بعد اضمحلال السدين. وبما أن الدين هو عمق الشعب الروسي فإنه سيتجاوز الوضع حتما"⁽¹⁾. لم تُكذّب الوقائع نبوءة عالم نفس الثقافة. لقد رأى مبكرا أن الناس يصغرون تحت عظمة كل ايديولوجية مزعومة.

ظل هاجسه المركزي واحدا منذ كتابه الأول وإلى آخر لقاء جمعه مع الإعلام: انحطاط الحضارة، ضياع قيمها الأساسية وحقائقها كـ "الزمن" و"الموت" و"الروح".. تلك المقولات الكبرى التي يتأمل فيها بطريقته الخاصة والفريدة. "كلما كنا بدائيين كلما كنا أقرب إلى الحكمة الأولى التي فقدتها المتحضرون". "البورجوازي الغربي معتوه، لا يفكر سوى في المال". أمام طوفان السلع الذي يغرق العالم الغربي يستهج سيوران بترديد قول سقراط الشهير: "ما أسعدني أن أرى كثرة الأشياء التي لا أحتاج إليها". غني بلا شيء وكل شيء غني به، لا يملك شيئا ولا شيء يملكه، يقول المتصوفة. لقد عرف كيف يدير ظهره لعتب المجتمع المعاصر الذي يخلق لنا احتياجات تافهة ويبعدنا عن التفكير في جوهر الأشياء. من لم يدر ظهره للعالم الحالي يفقد كل شرفه، يكتب نيكولا غوميز دافيدا في كتابه الشذري 'بؤس الديمقراطية'. أما الكاتب الفرنكوفوني المصري ألبير قصيري فيقول أن "الحياة الجميلة هي تلك

Histoire et utopie, Oeuvres, p. 996 (1)

التي نعيش فيها دون أن نملك شيئا، أن نحيا بعيدين عما يصنع سعادة الحمقى والمعتوهين. الملكية وحدها هي التي تجعلنا عبيدا. أجبذ ألا يذهب من يقرأ أحد كتبني إلى عمله في اليوم الموالي، يضيف مصري بباريس إذ أنك حين لا تعمل شيئا فإنك تقوم بعمل داخلي كبير". لا يأتي شقاء الناس سوى من شيء واحد، يقول لنا الفيلسوف باسكال، هو أنهم لا يعرفون أن يقفوا في راحة داخل حجرة. ظل سيوران حاملا نفحة من الحنين إلى قريته، ففي رسالة بعثها من باريس إلى أخيه أربيل في رومانيا كتب سيوران سنة 1972: "أي راعٍ عندنا هناك هو فيلسوف أكثر من أي مثقف هنا". في نفس الرسالة يندم على كونه لم يكن راعيا: "أعتقد أنه كان من الأحسن لي أن أمكث في قريتي وكان من الأفضل لي أن أرعى قطيعا أيضا. لو فعلت ذلك لكنت فهمت الأشياء الجوهرية أكثر من الآن ولكنت اليوم أكثر قربا من الحقيقة"⁽¹⁾.

كثيرا ما تساءل سيوران عن جدوى مغادرته لقريته البلقانية النائبة. بعد حياة زار خلالها من البلدان كثيرا وقرأ من الكتب تلالا، كما يقول، وجد في النهاية أن الحق كان مع الفلاح الروماني، ذلك الذي لا يؤمن بشيء، والمقتنع بأن الإنسان قد ضاع، سحقه التاريخ وانقضى الأمر.. الإنسان ضحية تاريخه، تلك هي قناعة سيوران وفلسفة التاريخ التي يؤمن بما إيما إيمان مثل بقية الفلاحين البلقان. "لم تنفعني دراستي العليا ولا تكويني الفلسفي والأدبي في شيء". هكذا يعترف ذات يوم.

لم يكن الضجر بالنسبة إليه بعدا من أبعاد الوجود وإنما كان البعد الوحيد. عاشه في كل مكان ومنذ الصغر. "لو كنت أعلم ما كان

Gabriel Liiceanu, Itinéraire d'une vie, éd. Michalon, 1995, p. 19 (1)

سيصير عليه حالك لكنت قد أجهضتك وارتحت"، قالت له أمه يوما، بعد مللها من ترديده أمامها وهو في سن مبكرة: "لم أعد أحتمل هذه الحياة".

طلبت المستقر بكل أرض، يقول الحلاج قديما، فلم أرني بأرض مستقرا. لا داعي ولا جدوى من الجري وراء المستحيل، فأينما اتجه صاحب الضجر فسيجد نفسه لا محالة غريبا وحيدا، يصعب عليه الإنتماء إلى بلد. كان يبدو العالم لسيوران منافقا ومهنيا فوق اللزوم وقد عبر عن ذلك بمرارة شديدة أحيانا وبروح مرحة خفيفة الظل في أغلب الأحيان. كان كأنه يريد الهروب من نوعه. "يقولون إنه ليس من هذا العالم"، وتلك هي الطريقة الوحيدة التي تؤثر في حينما يُتحدث بها عني"⁽¹⁾.

ينتمي إلى عائلة هؤلاء الذين يشعرون بالغرابة في كل مكان، إلى عائلة المتغربين في الوجود، تلاحظ ماريانا سورا على حق في كتابها 'سيوران، قديما وحديثا'⁽²⁾. ابتعد عن المظاهر واقترب من أنه، تذوق متعة عدم الفعل واجتناب المشاركة في حركة الجنون الجماعي، عاف من الحياة مظاهرها.. ذلك ربما كان أحسن دروسه التي تركها.. "لا أرى إلا ما يفرح ولكنني لست مسرورة (...). أنا سعيدة جدا وأموت ضحرا"، يقول فولتير على لسان جولي في "إليوز الجديدة". حياتي، يظن الجميع أنهم يعرفونها، يقول الشاعر الفرنسي أراغون، وذلك يميتني من الضحك أحيانا. يمكن أن يقول سيوران نفس الشيء وقد ردد في عديد المناسبات أنه عمل كل ما في وسعه لخلط الأوراق وزرع سوء الفهم بين دارسيه.

Les Cahiers (1)

Mariana Sora, Cioran, jadis et naguère, éd. de l'Herne, 1988, p. 16 (2)

لم أقترح هذه القراءة لتوسيع سوء الفهم حوله ولا لتعميق عدم معرفته وإنما هي قراءة ذاتية لا تخفي تعاطفها. في هذه النزعة الفلسفية السريعة في فكر سيوران، تركت شذراته وتعليقاته تتنادى واحدة تلو الأخرى، تتناقض بينها وتتصادم، ليتسنى الإنصات إلى كلام سيوران الأرخييلي بتعبير روني شار. كان الهدف اقترابا مباشرا وسريعا. لم أكن أرمي إلى تكوين صورة جامعة مانعة عن فكر الرجل بقدر ما كان المبتغى مشاركة القاريء متعة الحوار مع إحدى الفلسفات الأكثر سوداوية في القرن المنصرم والأكثر دعابة في آن. من هو أكثر أهلية من سيوران ليرعى تفاؤلنا، وليجعلنا نشعر بجذل الوجود أمام كارثة الولادة وأحواتها؟ قراءة سيوران تجنبا على الأقل الصراخ: "ليعش الموت!" "دون أن يكون فيلسوفا محترفا أو شاعرا، كان يفكر بشاعرية"، تقول حنا آرنت عن ولتر بن يامين، وكذلك حال سيوران.

يوجد نوعان من البشر: المتفائلون فلسفيا والحزاني في الحياة والمتشائمون فلسفيا والجذلي في الحياة. ينتمي سيوران إلى الفئة الثانية. أعتبره متشائما محترفا. على النقيض من نيتشه وشوبنهاور ليس لحياته الفعلية علاقة بأفكاره المتشائمة، فعلى الرغم من ألم الكينونة وحسرة الوجود، لم ينغلق على ذاته أبدا. خادعة تلك الصورة الشهيرة التي يبدو فيها مكفهر القسما، في أعلى درجات الكآبة والتعب والتي تكرر نشرها في الصحف والمجلات. لم يكن فظا صعب المعاشرة كدوستوفيسكي ولم تكن له نظرات نيتشه المرعبة بل كان بشوشا مرحا ودودا. يقول عارفوه أنه كان ناديا خفيف الظل لا تفارق الإبتسامة محياه أبدا. "يا حزني السعيد" تقول أغنية فيروزية. لا أحد يستطيع مقاومة قهقهة في حضرة تلك الروح المازحة، ذلك الحزن السعيد. كان يردد بلكنته الرومانية العذبة وهو في كامل حيويته: "كل شيء من سوء إلى أسوء، لا رجاء لا رجاء!"

تغدو السخرية خلاصا حينما يضيع كل شيء في حياتنا وتذهب كل الأمانى أدراج الرياح. "عن طريق الضحك تقول فرانسواز داستور، تُعبر عن تجربة كوننا نعيش من أجل لا شيء، نعيش بدون سبب. يخلصنا الضحك من ضيق مصيرنا ويفتح أمامنا ما يمكن تسميته 'مجانبة الوجود'"⁽¹⁾. عندما نفقد بواعث وجودنا وآخر عذر للبقاء أحياء، لا تبقى لنا سوى السخرية من أنفسنا. يملك كل شيء من ما زال يحتفظ بمخزون ضحك في زمن امتعاض الوجوه وعبوس الأرواح. حينما نحفظ بالقدرة على الضحك مما يحدث لنا، لا يستطيع أحد أن يفعل شيئا ضدنا، يقول ألبير قصيري، لأن من لا يستطيع السخرية من نفسه ومن حياته الرديئة لا يمكن أن يكون آدميا أصيلا"⁽²⁾. هل صحيح أنه حين نفقد مبررات العيش، كما يقول لنا سبينوزا، لا يبقى أمامنا سوى دوافع الموت؟ ليس في كل الأحوال على كل حال. أحيانا ستجتمع لنا كل دواعي الضحك. "تعال يا صاح، خذ الكأس واترك الزابور لداوود ولمحمد امبراطوريته. الأمس فات، والغد لم يأت بعد. عش اليوم فرحا. فلامعنى للحياة سوى الضحك!". يصادق سيوران، دون شك، على هذا المقطع من رباعيات الخيام. أن نكتب أو نضحك، تلك ربما هي أمثل طريقة كيلا نندم على ولادتنا، كيلا نجد هذه الحياة مملة طويلة ولكي نقف صامدين أمام فضيحة الحياة. "ربما لا سعادة خارج الكتابة. تبحث الحياة بعد فوات الأوان على تحقيق الإنسجام مع نفسها عن طريق أجمل وأجزل العبارات"⁽³⁾. هل يمكن أن تواجه الجملة الأنيقة والسخرية الأدبية السوداء تفاهة العالم؟ هل يمكن أن يكون الضحك

Nouvel Observateur, H. s., avril-mai 2006. (1)

(2) نفس المرجع.

Pascal Bruckner, l'euphorie perpétuelle, Grasset, 2000, p. 103 (3)

خلاصنا؟ الشيء الأكيد هو أن الملل لا يتسرب إلينا في حضرة أساتذة
التشاؤم والتطير. الأجل أنهم يعلموننا أحيانا كيف نضجر بمرح.
في مقابلة أجرتها جريدة الباس الإسبانية مع سيوران، يلخص
فرناندو سافاتار الظاهرة جيدا في سؤاله - الملاحظة: "إلى جانب ما
يمكن نعتة تشاؤما أسود في كل كتبكم، نعر على مرح غريب، بحجة لا
يمكن تفسيرها، ولكنها مسلية بل منعشة؟"⁽¹⁾. يعود سبب ذلك في
رأبي إلى أن رحلة تفكيره الطويلة، على واقعيتها وقسوتها وانسلاخاتها
في بعض المواضيع فإنها لم تكن في عمقها ملفوفة بالسواد. مع سيوران
نجد متعة نادرة وهي تلك التي نتمتع فيها بأفكار لا نتفق معها على
الإطلاق.

يرى توماس مان أن كل كتاب جيد ضد الحياة هو حث على
العيش. يمكن أن نضيف أن كل كتابة ضد الحياة قمينة بأن تصبح
تسييرا مسالما للبعث. إذا كان ألبير كامو يقول بأن مقابر عنابة الجميلة
تعطي شهية للموت، أقول أن قراءة سيوران تعطي شهية للحياة إذ تخلق
فينا كتبه رغبة كبيرة في البقاء على قيد الحياة لتتفرج عليها، بعيدين عن
أهوالها وجنونها. يقول: "في التخلص من الحياة حرمان من سعادة
السخرية منها. هذا هو الرد الوحيد على من يخبرك بأنه يريد الانتحار".
لئن كانت مؤلفاته تراجيدية فإنها لم تخل من الدعابة بل نجد فيها من
العزاء ما لا نجد في غيرها. شر البلية ما يضحك، يقول العرب ويقول
سامويل بيكت في "نصوص بلا جدوى" أن "لا شيء مضحك مثل
الشقاء". قرأت حكايات كثيرة عن أناس كانوا على شفا حفرة من
الانتحار ثم غيروا رأيهم بعد قراءة سيوران وعن أناس كانت لهم قراءة

Entretiens, p. 21 (1)

سيوران خير عون في تجاوز محنهم. "لي صديق بلغ العقد الثامن من العمر، قرّر أن يضع حدًا لحياته في الأيام القادمة. ما رأيك؟ سألني كأنه يسبح عن موافقتي. قلت له بعد برهة من الصمت: يمكن أن تكون على حق. ولكن إذا ما زلت تشعر برغبة في الضحك، تريث قليلا، أجّل مشروعك. لقد أعاني الضحك على تحقيق أعظم إنجاز في حياتي ألا وهو بقائي على قيد الحياة". أعادت قراءة 'قياس المرارة' الأمل إلى صديقه اللبنانية وهي تعيش سجينه القصف والدمار في بيروت، كما ردع نفس المصنف رغبة الإنتحار لدى معجبة من المعجبات اليابانيات. لنستأنس لآخر مرة بعبارة من عبارات المتشائم الضحوك: "السخرية هي الإنتصار الحقيقي والوحيد على الحياة والموت". اقتحمت الفكاهة قلعة الفلسفة عن طريق أستاذ من أساتذة المرارة. وهكذا ترى النور، لأول مرة، فلسفة تسمح بالتفكك وخفة الروح دون أن تفقد قوتها الدرامية ودون أن تكف عن مساءلة الوضع الإنساني لحظة واحدة.

زنزانة الوجود⁽¹⁾

كل شعب، في مرحلة من مراحل تطوره، يذهب به الظن إلى أنه شعب مختار. عندئذ يعطي أفضل وأسوأ ما لديه.

* * *

في الفن كما في كل شيء، يكون الشارح عادة نبيها وفطننا أكثر من النص المشروح. وهو الأمر الذي يمتاز به القاتل على الضحية.

* * *

في كل إنسان يرقد نبي، وحينما يستيقظ يزداد الشر قليلا في العالم.

* * *

ترددنا علامة على نزاهتنا. أما يقيننا فلا يدل إلا على دجلنا.

* * *

كل واحد يجير وراءه مقبرة أصدقاء أو أعداء فلا يوجد إنسان لم يتمن موت آخر، ولو في اللاشعور.

* * *

داخل كل رغبة: يتشاجر راهب وجزار.

* * *

(1) مختارات من ترجمة الكاتب.

قال لي أحد المرضى: "ما جدوى آلامي؟ لست شاعرا حتى أستثمرها أو أفتخر بها".

* * *

كل شيء غير متوقع وغير طبيعي عند رامبو إلا 'صمته'. لقد ابتداء من النهاية، وصل إلى حدود قصوى دفعة واحدة ما كان بإمكانه أن يتجاوزها لو لم يتنكر لإبداعه السابق. سكت وحسنا فعل. لو أنه عاش ثمانين سنة لكان انتهى به الأمر إلى التعليق على شعره، على انفجاراته السابقة، ثم الشرح وشرح الشرح إلى ما لا نهاية. وعندئذ كان سيرتكب أكبر جريمة في التاريخ في حق الشعر.

* * *

المريض ميتافيزيقي رغم أنفه. لأن المرض منفذ لا إرادي إلى ذواتنا. يجبرنا على التوغل في أعماقنا.

* * *

ثرثرة، هي، كل مناقشة مع شخص لم يعرف الألم.

* * *

من الصباح وإلى المساء لا نصنع إلا الماضي.

* * *

لبتهم يدركون السعادة التي يدينون لي بها أولئك الأبناء الذين لم أرغب في مجيئهم إلى هذا العالم.

* * *

إفراطان مدمران: الرطانة الفلسفية واللغة العامية. الأولى في تكلفها والثانية في حيويتها.

* * *

لو كنت أملك شجاعة كافية لأصرخ، كل يوم، ربع ساعة،
لكنت أشد توازنا.

* * *

أتسكع عبر الأيام مثل موسم في عالم بلا أرصفة.

* * *

سأكتب على مدخل منزلي: 'كل زيارة هي اعتداء' أو:
'ارحموني، لا تدخلوا' أو: 'كل الوجوه تقلقني' أو: 'غائب دوما' أو:
'ملعون من يدق الباب' أو: 'لا أعرف أحدا' أو: 'مجنون خطير!'

* * *

أرسطو، طوما الإكوييني، وهيغل ثلاثتهم مستعبد للعقل. المذهب
أخطر أنواع الاستبداد، في الفلسفة وفي كل شيء.

* * *

الكتابة حيلة عندما لا نكون متعودين على الصيدليات، هي
شفاء.

* * *

التاريخ؟ فرصة ممنوحة للبشر ليفقدوا مصداقيتهم بالتداول، الواحد
تلو الآخر.

* * *

حينما لا أفكر في الموت أشعر أنني أخدع واحدا بداخلي.

* * *

أشعر أنني حر ولكنني أعرف أنني لست كذلك.

* * *

في قرية نورماندية، سألت فلاحا عن الموكب الجنائزي الذي كان
يستابع من بعيد: "ما زال شابا، لم يتجاوز الستين. وُجد ميتا في الحقل.
ماذا تريد؟ هكذا. هكذا. هكذا." ترديد بدا لي تافها في البداية لكن
استبد بي في النهاية. لم يكن الرجل يدري أنه قال في الموت كل ما
يمكن أن نقول وكل ما نعرف عنه.

* * *

كلما عشنا أكثر يبدو لنا أن ما عشناه كان بلا جدوى.

* * *

حين أفكر في حماقاتي السابقة لا أجد ما أقول. لا أفهم ما دهاني...

* * *

لا يمكن تدريس الفلسفة إلا في الساحات العامة أو الحدائق أو في
بيوتنا. كرسي الجامعة هو قبر الفلسفة وموت كل فكر حي. الكرسي
هو العقل في حداد.

* * *

ردا على سؤال طرحه عليّ طالب حول علاقتي بنيتشه أجبت
بأنني تخلّيت عنه منذ زمان. ولماذا؟ يستفسر الطالب. لأنني وجدته
ساذجا. أعيب عليه حماسه واندفاعاته. لقد هدم الأوثان ليعوضها
بأوثان أخرى. هو هادم مزيف... لقد راقب البشر من بعيد، لو اقترب
منهم لما جاء بفكرة السوبرمان على الإطلاق...

* * *

لم أهضم بعد عار الولادة

* * *

كأن الناس ليس لهم ما يفعلوه سوى أن يموتوا، يقول المرء، عندما يرى تلك الأعداد الهائلة من القبور.

* * *

في مجال الفلسفة، أعتقد أنه ليس من الضروري نحت كلمات جديدة، ومصطلحات تقنية. بالعكس تماما هذه التقنية هي الخطر الكبير الذي يترتب بالفلسفة الجامعية والذي يبعدها عن حقيقة الأشياء.

* * *

لا يحب الموسيقى سوى الذين يتعذبون في الحياة.

* * *

أدرت ظهري للفلسفة حينما اكتشفت أنه من المستحيل العثور لدى كانط والفلاسفة أجمعين على أدنى ضعف إنساني ولا أدنى علامة حزن حقيقي.

* * *

لا تعدو المذاهب الكبرى أن تكون سوى تحصيل حاصل براق.

* * *

كم هي قرية مني تلك العجوز المجنونة. تلك التي كانت تركض راغبة الإمساك بشيء قليل من الزمن.

* * *

في غمرة أعوام الدراسة الجدية، اكتشفت أنني سأموت في يوم من الأيام وهذا الأمر أعديني أرضا. اقتنعت بأنه لم يبق لي شيئا أتعلمه أكثر من هذا، فتركت مقاعد الدراسة لأطلع العالم بهذا الإكتشاف الفريد.

* * *

عن طريق الموسيقى نشعر فعلا أننا نملك روحا.

* * *

يتهافت الجمهور على ما يسمى بالكتاب الإنسانيين، لأنه يعرف تماما
ألا خوف معهم: لقد توقفوا مثله في منتصف الطريق، لذلك سيقترحون
عليه تصالحا مع المستحيل، نظرة منسحمة مع الكاوس، الفوضى.

* * *

نبدو على هيئة مجرمين في اللحظة التي نعتقد فيها أننا فهمنا كل
شيء.

* * *

الموسيقى وهم يُكفّر عن كل الأوهام الأخرى.

* * *

تشریح النوستالجيا يا له من عنوان! إنه أروع عنوان يمكن أن يعطى
لكتاب. ولا يهم بعد ذلك إن كان الكتاب رديئا أم جيدا.

* * *

لا نكتب لأننا نملك شيئا نقوله وإنما لأننا نرغب في قول شيء.

* * *

الموت! يا له من حزني. التحول في رمشة عين إلى شيء.

* * *

وأسفاه على "العدم". أفسده تعسف فلاسفة غير جديرين به.

* * *

إنسان يحترم نفسه لا يمكن أن يكون له وطن. الوطن صمغ قوي.

* * *

نبقى دائما عبيدا طالما لم نشف من مرض الأمل.

* * *

مهمتي قتل الوقت ومهمته قتلي. قاتلان متواطفان.

* * *

أمضي وقتي في الدعوة للإنتحار عن طريق الكتابة والدعوة لتجنبه
عن طريق القول. هو مخرج فلسفي في الحالة الأولى ولكن في الحالة
الثانية يتعلق الأمر بكائن، بصوت، بشكوى.

* * *

أهم إنجاز حققته في حياتي هو استمرار بقائي في الحياة.

* * *

ليس من المهم أن أعرف من أكون ما دمت لا أكون في يوم من الأيام.

* * *

ننسى جسدنا ولكنه لا ينسانا أبدا. ملعونة ذاكرة الأعضاء!

* * *

ما الشيخوخة إلا الثمن الذي ندفعه مقابل معاشنا.

* * *

الأمل هو الشكل الطبيعي للهديان.

* * *

كان يجب أن أستسلم لغراثزي، ترك جنوني يفتح وينع. لكنني
فعلت العكس تماما: اختفيت وراء قناع العقل.

* * *

ينبغي الإنصات إلى المخنون الذي فينا.

* * *

كلما رأيت فلاحا رومانيا أُسرَّ بملاحظة الفراغات المؤلمة التي
عرفها تاريخنا مرسومة على تجاعيد وجهه.

* * *

كل واحد منا هو في وضع آدم. يجب علينا أن نبدأ كل شيء من
جديد.. الآدموية تعني بكل بساطة، أن تطرح كل مسائل الحياة سواء
أكانت روحية أو تاريخية أو سياسية كأنها تطرح لأول مرة. أن تكون
آدمويا، هذا يعني أنك مضطر لتدشين عالمك الخاص.

* * *

موسيقى موزار هي الموسيقى الرسمية للجنة.

* * *

أنا غاضب على كل شيء. حتى لو انتخبت ربا سأقدم استقالتي.

* * *

تبدأ كل حضارة بأسطورة وتنتهي بشك.

* * *

لا أنتظر شيئا بما في ذلك الموت. عدم اكرائي ليس له حدود.

* * *

الملل إعصار بطيء.

* * *

لم تعبد البشرية إلا أولئك الذين دفعوها إلى الهلاك.

* * *

بمخالطتنا للفرنسيين نتعلم أن نكون أشقياء بلباقة.

* * *

ينبغي أن نقف مع المظلومين دائماً حتى ولو كانوا على خطأ ولكن
دون أن يغيب على أذهاننا أنهم من نفس طينة الظالمين.

* * *

لا اختيار لنا سوى بين حقائق قاتلة وخدع شافية.

* * *

كلما خرجت من ذاتي غلبني النعاس ونمت.

* * *

للتاريخ مجرى ولكن ليس له معنى.

* * *

أنت ضد كل ما جاء منذ 1920، قال لي يوما هنري توماس. لا
منذ آدم! أجبت.

* * *

أهمرت بشيئين إثنيين في شبابي: المكتبات والمواخير.

* * *

فوجئت يوما وأنا أشرح لتلاميذي أن كل شيء مريض بما في ذلك
مبدأ الهوية.

* * *

كيف استطعت أن أكون ذاك الذي كنته.

* * *

كل كتبي هي عبارة عن انتحارات فاشلة.

* * *

الحدائق أصبحت تعج بالأطفال والشيوخ. خليط من المستشفى
والسيرك.

* * *

كنت، أنا كائن، سأكون... تلك مسائل نحو وصرف، ليس قضايا
وجود بالمرّة.

* * *

لو لم يحافظ على وهم أنخير لكنت أعلنت انتمائي إلى عمر الخيام،
إلى أحزانه التي قلما نجد لها نظيراً... لكنه ظل مؤمناً بالخمير.

* * *

الشعور بالملل لوك للوقت

* * *

الشكوكية أنافة الحيرة.

* * *

الأحداث: أورايم الزمن...

* * *

فكرة الإنتحار هي الفكرة الوحيدة التي تجعلنا نتحمل الحياة.

* * *

كون الحياة بدون معنى هو السبب الوحيد الذي يعجلنا نتحملها.

* * *

عدم الوعي وطن، الوعي منفي.

المعنى والغضب

مدخل إلى
فلسفة سيوران

حميد زناز

• كاتب من الجزائر

يُمكن إشكال الوضع البشري حسب مؤلف «مساويء أن يكون الإنسان قد ولد»، في استحالة العودة إلى الطمأنينة الأولى والغطس ثم الذوبان من جديد في نعيم ذلك اللاوجود العذب الذي كنا نتمتع فيه قبل أن نولد، قبل أن نتفردن. لقد رُمي الإنسان في جسد وتُرك يتيماً أمام مصير مجهول، فما كان يمكن أن يكون إغريباً في هذا العالم الموحش. ينبع ضجر الإنسان وتذمره حيال الوجود من هذا الإحساس المطلق بالتيه، ومن ذات الإحساس نشأت الآلهة والديانات والفلسفات. ما الواقع سوى قمامة لدى سيوران، نسخة باهتة لممكن ما، أغنى وأسعد. لذلك، نعثر على حنين يسري في كل ما كتب. حنين إلى مطلق مستحيل المنال، حنين إلى ما قبل النشأة: «حينما عرفت بأنني ولدت، انتهى كل شيء بالنسبة لي»، يتحسر بمرارة. وهذه «المعرفة» هي مصدر تمرده وشكواه الدائمين. الموت الحقيقي للإنسان هو ولادته. أليست الولادة سقوطاً للروح في قعر الحسد؟

S.R.

مكتبة جريير
JARIR BOOKSTORE

ريال

ISBN 978-9953-87-559-0



9 789953 875590

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com

نيل وفرات.كوم



جميع كتبنا متوفرة
على شبكة الإنترنت